الباحث عن الحقيقة

الباحث عن الحقيقة

قصـــة

تأليف
محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

"إن لم تكن إحدى حسناتي فاغفر بها إحدى سيئاتي يا ربي"

المؤلف

١

رائحة بخور نادرة تملأ أنفه ، وهمهمات من أدعية مهموسة تملأ أذنيه ، لكن قلبه الليلة يملؤه الشك .

شاب باهر العود صحيح الجسم دائم التأمل ، له حواجب غزيرة مقرونة توحي بالقوة ، وبين الحاجبين تقطيبة تشكو في صمت ، شكوى النفس للنفس ، حركة الشك التي تبحث عن اليقين في تحسس ودبيب ، وبين كل فكرة وفكرة تتنهد .

والمساء ينزل على قرية « جي » القرية من « أصفهان » بأمبراطورية « فارس » ، يحمل رائحة عيد « النوروز » الذي فرغوا من الاحتفال به ، وأخذ دهاقين[1] القرى وحكامها أيامها يجهدون الناس في جمع أثمان الهدايا الإجبارية التي تقدم لكسرى ، فرقدت القرية في أحضان التل ككائن أنهكه التعب .

وعلى التل يقع « بيت النار » معبدهم المقدس ، الذي خرج منه هذا الشاب المجوسي لتوه وأخذ يهبط التل ، في أنفه رائحة بخور وفي أذنيه أدعية مهموسة ، وصورة

---

(١) جمع دهقان وهو حاكم القرية أو ملك الضيعة .

لخدام المعبد وقد أخفوا أفواههم بأربطة وهم يوقدون النار في الهيكل المظلم ، حتى لا تلوث أنفاسهم طهارتها .

عندما استقرت أقدامه على الأرض أحس كأنه وصل إلى شيء ، ألقى نظرة على الأشياء من حوله فرأى بين وحداتها تفاهما كان مفقودا من قبل . وأحس كأن هذا النجم يومض في السماء يخاطب هذا الحجر الملقى على الأرض . ليس هناك شيء منفصلا عن شيء . وكل المخلوقات تواكبت في وضع واحد كتناسق الأنغام في اللحن .

وقف متأملا كأنه نسي المشي ، وألقى نظرة على بيت النار فوق التل فأحس غربته .. هذا هو الشيء الوحيد المنفصل عن كل ما حوله . وكأنما اتفقت الكائنات جميعا على خصامه . نزل عليه الليل أشد ظلمة وكأنما الفجر على بقية الأشياء ، وأحس الشاب أن قلبه ينبوع لكل هذا . فمنه صدرت إشارة حار في معناها غيرت نظرته للكون ، فهو منذ بلغ رشده وهو يبحث عن الله ، وقاده إليه هرابذة[١] المجوس وقالوا له : « إنه هنا » .

وعلموه وتركوه يعلم الناس مثلما علموه ، وقدم النبات المقدس للنار العظيمة ، الكائن الأبدى المطهر في نظرهم .

---

(١) الهرابذة : رجال الدين عند المجوس .

وها هو ذا فجأة ينظر إلى الحجر والنجم ويلحظ بينهما تفاهما وتناسقا ، ويشعر أن سر التفاهم نبع من قلبه ، ويرى الليل جاثما جدا على معبد النار .

عند ذلك تأوه الشاب آهة تحمل غاية أسرار لذة (الوصول) وكل آلام جهد (البحث) فيها عبادة مثل الصلاة وخشوع مثل الركوع وتحية لوجه عظيم عرفه ..

ثم أخذ السير نحو داره ..

هذا الشاب ابن دهقان القرية . كان أبوه مشغولا منذ أيام فى جمع الضرائب وثمن الهدية التى قدمت لكسرى . أبوه رجل قصير غليظ شديد الوطأة على الناس كثير الحب لأبنائه .

ولم يكن فى حياته شىء أغلى ولا أعز من هذا الابن . لم يكن يناديه باسمه بل كان يناديه دائما يا « أنا » ، والإنسان لا ينادى نفسه علنا . لذلك كان يحبه قدر ما يحب الدنيا مضافة إليها نفسه .

وعندما يهل عليه يقبل حاجبيه المقرونين ، يقف على أطراف أصابعه لأن ابنه كان أطول منه . وفى أغوار عينيه السوداوين كان يرى كل مقدس ، وشيئا مثل هيكل النار ذى الظلام والوهج فى بيت المجوس على قمة التل .

ودخل الشاب داره ولقيته أمه التى خاطبته بتحيه أبيه :

ــ هل جئت يا « أنا » ؟

ولم يرد الشاب بل سأل :

ـ وأين أبى ؟

ردت فى إهمال امرأة تنادى الجواري فيحملن إليها أكثر مما تطلب :

ـ لعله يجول فى المزرعة .

ولم ينتظر بل ولاها ظهره وخرج ، لم يكن يدرى لماذا يبحث عن أبيه ، ولم يكن يدور بظنه أنه يبحث اليوم عن خصم عزيز . وفى ساحة الدار رأى فرسا عربيا اشتراه أبوه فى إحدى رحلاته إلى الجزيرة فهم أن يركبه ، ولكنه أعرض وآثر أن يذهب ماشيا إلى أبيه .

وعند أطراف المزرعة سمع على بعد صهيل حصان جامح وضجيج غضب ، وكان الصوت صوت أبيه يهدر ويتدفق ثم ينقطع من الجهد . ولم تكن هذه الأشياء قليلة ولا نادرة فقد كان من أقسى الدهاقين فى الإقليم . لكن الشاب يحس الليلة بأن شغاف قلبه شديد الشفافية غير قادر على لمسة ، وعندما قارب موقعه سمع صوت جلد ورجلا يصرخ وسوطا يئز فى الهواء يصاحب كل هذا صهيل الحصان .. ثم خوار الخنازير .

وتقدم الشاب من أبيه الذى كان يجلد رجلا .. ومد يده إليه ضارعا :

ـ أبى .

فتوقف الرجل عما كان فيه ، ثم هتف وهو يلهث وأطرافه ترتعد :

ـ هـل .. جئـت .. يـا « أنـا » .. ؟

هتـف الشـاب بينـه وبـين نفسـه وهـو يهـز رأسـه وعينـاه تفيضـان بـالدمع : « أخطـأت .. لم يعـد اسمـى كذلـك .. أصبحت رجلا غيرك .. ورجلا غير نفسي .. بل ربما كنت نفس هـذا الرجـل الـذى تجلـده .. كـل هـؤلاء المسـاكين فـى جلـدى .. أصبحت أحس وقـع السـياط عليهـم » . وتـأوه .. تلـك الآهـة التـى تحمـل سـر أسـرار (الوصـول) وكـل آلام (البحـث) .. عبـادة مثـل الصـلاة وخشـوع مثـل الركـوع وتحية لوجـه عرفـه ..

كـان صـوت أبيـه المتقطـع لا يـزال يصـل إليـه فـى ظلمـة الليـل :

ـ لماذا لا تـرد علـى يـا « أنـا » ؟

وهـاج خـوار الخنـازير كأنهـا تحتـج علـى جلـد راعيهـا ، وتقـدم الشـاب مـن الرجـل المنزوى عنـد بـاب الحظيرة واحتضنـه ففـاحت منـه رائحـة سمـاد وروث . ولاذ الرجـل بـين أحضانـه كأنه لمـس إنسـانا لأول مـرة :

وتراجـع الدهقـان مذعـورا . أدرك عمـق الخطـر الـذى أتـاه ابنـه الشـاب الـذى يلبـس الحريـر وهـو يحتضـن راعـى الخنـازير . ثم همـس :

ـ ماذا فعلـت يـا .....

وقطع نداءه وصاح بصوته الأجش :

ـ لا .. لست « أنا » .. إنك « أنت » شخص جديد لا أكاد أعرفك ..

ماذا فعلت ؟

همس الابن كالمأخوذ :

ـ ولماذا تجلده ؟

رد الأب صارخا :

ـ مات اليوم تحت يده ثلاثة خنازير ... فماذا لو مات هذا الرابع ؟

ـ إنه لا يدخل فى العدد يا ... « وتنحنح » .. لأنه إنسان .

وحرك الدهقان سوطه فى الهواء ، فأز فى الليل كأنه جرحه . واحتار فيمن يضرب ، وخيل إليه أنه على وشك أن يهوى به على وجه ابنه الشاب الذى لم يعد (أنا) ، وأحس كأن كفيه كانتا قابضتين على شىء عزيز وسقط ، ثم ركب حصانه وركض ..

★ ★ ★



سمع صوت جلد ، ورجلا يصرخ وسوطا يئز فى الهواء
يصاحب كل هذا صهيل الحصان ... ثم خوار الخنازير

كانت رائحة الراعى تملأ أنف الشاب بعد ما آوى إلى حجرته . وكان بينها وبين رائحة بخور المعبد تطاحن ظاهر ، وتعادلت الرائحتان بعد فترة ثم تفوقت رائحة الإنسان . وخفق قلب الشاب خفقة حار لها . ففى نفس هذه الليلة رأى إشارة التوافق بين النجم الذى يتوهج فى السماء والحجر الملقى على الأرض . وها هو ذا الإنسان فى أدنى درجاته يدخل فى دائرة التوافق !

عندئذ بدت له معالم حجرته بوجه غريب ، فوسائد المخمل وأوانى الفضة وملابس الحرير والسيف الأثرى المحلى بالجواهر المعلق على الحائط — كل هذا لم يعد يرى فيه الوجه العظيم الذى عرفه . بل لمسة الحنو للراعى وصيحة العدل فى وجه الظالم وتراجع سوط الدهقان هى التعبير الجديد الحى الذى ملأ وجدانه .

وفى الناحية الأخرى من الدار بات الأب يتقلب فى راشه ، فلما أصبح الصباح والتقى الوجهان رأى الأب على وجه ابنه حيرة يقظى ، حيرة من يبحث عن شىء كان واثقا من أنه موجود ثم اختفى فجأة ، وكانت عين الشاب تبحث عن أبيه فى وجه أبيه ، وتبادلت القلوب لغة التنافر فلم يستطع الأب أن يناديه يا « أنا » بل ألقى إليه فورا بأمره أن

يذهب إلى الضيعة ليرى ما إذا كانت هناك خنازير قد ماتت اليوم .

وصدع الابن بالأمر ... ومشى ، ولم يكن راعى ليلة البارحة موجودا بل كان هناك رجل غيره على وجهه تعبير يعذب النفس لأنه يصف العذاب بالصمت ، الوجه العكسى لسكون النشوة وصمت اللذة . فكما أن سائس الخيل أعدته الحركة والخيلاء والنظافة ، فقد بدا راعى الخنازير كمخلوق يتطور إلى الوراء حتى أوشك أن يكون خنزيرا ، لكن وجهه يروى قصة عذاب تألم لها الشاب وأحس أن كتب المجوس الخمسة والأدعية والنار المقدسة والطقوس التى ناءوا بها لكثرتها لم تفعل لهؤلاء شيئا ، وأنهم يخاطبون آلهة تتصارع وكأنها فى صراعها مشغولة عن سعادة الإنسان .

ورأى الشاب جراحا مثل جراح البارحة على وجه راعى اليوم وإن لم يكن مجروحا ، فمشى يضرب فى الخلاء غير عارف إلى أى وجهة يسير . والشمس غائمة ورياح متوسطة الهبوب تداعب صداريته وأطراف سراويله الواسعة وتلفح بشىء ما وجهه الساهم .

وبين حين وحين كان ينظر إلى السماء . هناك أكداس من السحاب الأشهب والرمادى بينهما وديان من الرقعة الزرقاء . شعر الشاب أن روحه تمشى فى هذه الوديان وأنها ترى فى نهاية الوادى جنة خضراء . عندها ناس مجتمعون .

ملابسهم غير ملابس الفرس وتقاليدهم غير تقاليدهم . على وجوههم تعطش شديد ومعرفة أعظم بالوجه العظيم الذى عرفه أمس ، أمس البارحة .. مساء .. والليل يهبط على القرية والمعبد الذى هجرته نفسه يبدو وكأن الليل نام عليه والفجر يلون كل الكائنات بلون فضى .

وأحس بحاجة إلى البكاء . فبكى .. من شوق مبهم يخالطه وعد غامض باللقاء . وأحضان فى رحابة الأبدية ودفء الحياة كلها بكل أنواع الدفء . دفء الريش والزغب الشمسى والقلب والحب .

وأحس الدفء فعلا فى أوصاله .. ونشط هبوب الريح فحمل إلى أذنيه نشيدا . كاد يحار فى مصدره أول الأمر لكنه سرح ببصره فى كل اتجاه حتى عرف مصدر النشيد . وسار إليه . ودخل على ناس هناك . وخيل إليه أنه يرى شيئا خيرا مما كان يراه فى معبد النار . وهناك نسى نفسه حتى انقضى اليوم كله ، لم يحس فيه بتاتا بحاجة مادية ، لا طعام ولا شراب . إحساسه الروحى خدر كل الحواس ، وتحولت كل الطاقات إلى خدمة الروح ، فالعين تبصر وترى ماوراء الأشياء ، والأذن بدأت تسمع فى الأصوات نبرة جديدة ، وكل طرق المعرفة نبعت من القلب وعادت إليه وأصبحت الحواس الأصلية خدما عاديين فلم يشعر بجوع ولا ظمأ كأن

الجسم الطينى الأصل فى منتصف الطريق إلى الشفافية والاستغناء . مثلما يتصل بأصل الوجود ومصدره ومدبره ومسير الأفلاك فيه .

ودخل الليل مرة أخرى وانصرف الشاب عائدا إلى داره ، قطع نفس الطريق ، وقلقت الأم وأشعلت فى الدار كلها نار القلق ، وبكت الأخت (موران) الحسناء لأن شقيقها لم يعد ، وهى تعلم أن خلافا قد نشب بينه وبين أبيه ليلة أمس وأن الأب حرك السوط فى الهواء ليلهب به وجه « أنا » لكن كفه خذلته .

وبدأ الأب يقلق ، وبعث فى طلب الابن ناسا من الأتباع ، لكنهم فوجئوا والليل متقدم بدخول الشاب وعلى وجهه آيات من الجهد . دقت الأم لها صدرها .

وجلس الرجل الغليظ وحوله زوجته وبنته ينظر إلى الشاب السمهرى العود نظرة جبارة ، فيها من الاتهام أضعاف أضعاف كثيرة ، فهو فى نظر أبيه الليلة غير ذلك الذى ولده .

- أين كنت يا .. أنت ؟

أطرق الشاب مليا ثم رفع رأسه ، ورأى الأب حاجبيه المقرونين اللذين طالما وقعت بينهما قبلاته فدق قلبه بالحب العاتب . ثم بدأ الشاب يتكلم :

ـ مررت على رعاة الخنازير كما أمرت .

ـ وماذا وجدت هناك ؟

ـ وجدت شيئا لم تعرفه يا سيدى .

لم يسمع كلمة أبيه ولكنه تناسى ، وعاد يسأل :

ـ ثم ماذا ؟

ـ وجدت الله فى كل مكان سرت فيه .

جلجلت ضحكة الأب الفظ حتى جفلت (بوران) من صخبها .

ثم سأل الأب :

ـ ووجدته عند رعاة الخنازير ؟

ـ نعم ، إنه رب المساكين .. وجدته على صورة جديدة ، على صورة الحق . ليس فى النار التى حرمتم على الشمس أن تراها ، وليس فى الشمس التى غلبتها النار على سلطانها فى المعابد . ليس فى شىء من هذا . وجدته فى آلام الإنسان ليلة أمس ، ثم الدعوات الضارعة إليه فى السماء .

فتح الأب فمه ثم نسيه مفتوحا ، وصوت أقرب إلى همس الفحيح يخرج منه بلا إرادة . عينا الأب تسألان الابن من جديد فى عجب خائف متحفز جبار .

– ماذا قلت يا مجنون ؟

– هناك .. على بعد عشرة أميال .. رأيت النصارى يصلون .. فدخلت عليهم .. فأعجبنى ما يقولون ..

وبصوت جبار صاح الأب الغليظ :

- يا دعوة باطلة .. إنهم يعبدون ما لا يرون ونحن نعبد ما نرى توسلا به إلى ما لا نرى .. هل تضحك يا مغرور .. لقد كنت حجة المجوس وفخر هرابذتهم .. كفاك .. يا بوران الغالية .. هاتى أغلظ قيد من الحبال لأضعه فى يدى ورجلى من كنت أناديه « أنا » ..

وأجهش الرجل بالبكاء بعد أن تركه ، وذهب إلى النار المقدسة فى البيت وسهر إلى جانبها حتى نهاية الليل .

★ ★ ★

أما الشاب فقد بقى مقيدا فى حجرته ، وكلما دخل عليه أبوه رأى على وجهه آيات نادرة . آيات معرفة قد تبدو العين معها زائغة لكن الوجه مستنير . مثل استنارة القمر بنور الشمس .. نراه وإن كنا فى الظلام ..

ودخلت عليه (بوران) تبكى ومعها طعام فأعرض عنه ، فجلست إلى جواره ، فاحت منها رائحة السكينة وإن أحس بوضوح إحساسا كأنه جديد ـــ إنها من عبدة النار ، ولاحت له عيناها الفارسيتان المكحولتان وهما مائجتان بالدمع مثل بحيرة سوداء . وفاحت فى حجرته رائحة حب إنسانى على عظمته وقوته بدا جاثيا تحت أقدام حبه الجديد الذى أخذ عليه العقل والقلب .

واغتصب ضحكة وقال :

– بوران .. إن ملكة الصين المكحولة بكحل فارس هذا الذى فى عينيك .. لتسجد لك إن رأتك ..

قالت ودموعها تصل إلى ثناياها وهى تبتسم :

– ماذا قلت يا أخى ؟.. إن كنت تحبنى حقا فارجع عن الدين الذى دخلت فيه .

فأجاب مهموما ، هم الذى يود أن تشمل النعمة الجديدة ناسا يحبهم :

– آه يا بوران الغالية .. ليتك يا حبيبتى تشعرين بما أشعر به .. الجنة الآن فى داخلى .. ذراعاى خلفى وقدماى موثوقتان والراحة تملأ القلب . عينى وراء أفقكم يا بوران .. هناك صلاة ذات أجنحة ترتفع بأصحابها إلى السماء ، وهناك صلاة كسلاسل المينا تشد السفينة إلى الأرض ..

– أحل وثاقك وألقى جزائى ؟ ..

هتف بصوت كأنه آت من عالم بعيد :

– لا تفعلى .. فالقوة التى حلت وثاق القلب ليست عاجزة يا بوران عن أن تحل وثاق قدم .

ثم ابتسم دامعا . وتركت له الطعام وخرجت لأنه رفض يدها .

ودخل الليل فجاء أبوه . ألقى عليه نظرة وأطفأ النور وأغلق الباب وانصرف . وسكنت القرية . ليس فيها إلا أنفاس الرياح ثم أخذ البرق يلمع . وليس هناك صوت مطر لكن الرعد يدمدم على ارتفاع عظيم كجبال من الحجارة يأتى صداها إلى الأرض . وشعر الشاب كأن شيئا قديما يتداعى لكنه على قدمه ضخم . فذكر معبد النار على التل . وأركانه الثمانية وأبوابه المتعددة وصوت الهاون الذى يدق نبات « الهوما » المقدس ليرش فى أرضه . وأخذت جبال الأحجار تتداعى من جديد ، ثم لمع البرق . دخل شعاع منه إلى حجرة الشاب فوقع على الحائط المقابل للنافذة فلمع السيف الأثرى فى ترف . وهتف الشاب فى نفسه كأنما ذكر شيئا . « يا مخلص الأسرى » وصمم على أن يصل إليه على الرغم مما فى ذلك من مشقة ومخاطر ، وهو حين يزحف موثوقا حتى يصل إلى الحائط فلن يستطيع الوصول إليه إلا عن طريق الرجلين . وها هو ذا وميض البرق يتوالى وأخذ السيف يرسل بوميضه كأنه ينادى الأسير . وصل إلى الحائط ووضع عليه رجليه واحتال .. وهو يقف على رأسه قليلا — فى أن يجعل القيد بين الحائط والسيف .

وساعده عـوده الطويـل علـى أن يصـل بقيـده إلى مقربـة مـن حمالـة السيف ثـم ارتمـى بكـل قوتـه إلى الناحيـة المضـادة فـانخلع السيف مـن الحـائط وانغـرس فـى الأرض .

صلصلـت فـى الظـلام حركـة سيف وحيـد ثـم خرسـت فـأيقن أنـه وقـع علـى شـىء لـين . وعندئـذ تنفس الصعـداء . فقـد كـان ممكنـا أن ينغمس السيف فـى جسـمه . ولكـن القـوة التـى حلت وثاق قلبه غـير عـاجزة عـن حـل وثـاق رجلـه .

واتكـأ بظهـره للحـائط وجلـس صامتـا . قلبـه يخفـق بسـعادة غريبة . منتظرا أن يدلـه السيف ـ بنفسـه ـ علـى مكانـه .

وعـاد الـبرق يلمـع فـرأى موقـع السيف . زحـف إليـه حتـى لمسه بقدمـه وهـو مغـروس فـى الأرض فـانطوى عليـه وجعـل ذقنـه فـوق مقبضـه فثبتتـه فـى الأرض قوتـه الفتيـة ، وبعدئـذ أخـذ يحك القيـد فـى السيف . وانبعـث فـى الظـلام صـوت معدنـى ينشـر كتانـا كـان لـه فـى أذن الأسـير صـدى الأناشـيد والصلـوات . وشـعر أن المشـقات أعظـم الأبـواب التـى تـؤدى إلى اللّـه . وأن الذيـن يعـانون المشـقة فـى دنيـاهم محسوبون علـى اللّـه فـى آخرتهـم .

وعـاد الـبرق يلمـع . فوقـع ضـوءه علـى أوانـى الفضـة . فـأحس وهـو منغمـس فـى قطـع الحبـال أن هـذا السـيف الأثـرى كتـب له أن يخـدم الله علـى طـول المـدى . ولـو أنهـم قـالوا عنـه :

إنه كان فى يد قاطع طريق وأن أحد أجداده ظفر به وقتله وأخذ سيفه هذا .

وتنهد : « لكأنما عاش السيف ليكفر عن سيئات غير محسوبة عليه . بل على اليد التى كانت تحركه » .

ثم ندت منه تنهيدة ارتياح . لقد انقطع الحبل . وها هو ذا يشعر بأن قدميه قد حررتا . شعر فيهما بقوة عاتية . خيل إليه أنه قادر على أن يضرب الجدار بأحداهما فيتداعى ، وأنه قادر على الجرى بهما حتى الشام . موطن الدين الجديد ، والذى دله عليه النصارى حين سألهم عن موطن دينهم .

وتأوه : « الشام » .. آه « الشام » .. لا بد من الذهاب إلى هناك ولو كلفنى ذلك حياتى .. » .

وشعر أن مسقط رأسه ليس فى هذه القرية يل هناك فى أرض عرفها قلبه وإن لم ترها عيناه .. كأن القلب ولد فيها .. هناك سيجلس تحت ظل الله . وليس قدره فى يديه القويتين ولا عند أبيه ذى الجاه والمال والسطوة .. لم يعد يرى الله فى شىء مما حوله . إلا فى بريق هذا السيف .. أما بقية ما رآه فكأنه فى خصام مع الحقيقة المطلقة تلك التى لمست قلبه ريشة من جناحها الأبيض .

ووقف منتصبا وسط الحجرة ، ثم أولى ظهره للسيف وجعل يحك وثاق يديه فيه بحركة متمكنة ، فسقط على الأرض .

وجه إليه الشاب كلمة عتاب : « يا سلاح الله .. » ثم رقد على الأرض والتقط السيف بين قدميه وقذف به مصوبا نحو باب الحجرة ، فانغرست نهايته فى الخشب فسار إليه . وهناك غمسه فى الخشب أكثر وأكثر بظهره القوى وجعل يحك وثاق يديه فى حدة حتى تحررت يداه من القيد .

صفق بهما فى الظلام ثم نزع السيف من الباب وقبله : « يا سلاح الله » .. واحتضنه كأنه ولده . ثم فتح النافذة وألقى نظرة على القرية النائمة .

★ ★ ★

قرر أن يغادر الدار قبل انبلاج الصبح . وشعر بفرحة العودة وانقضاء الغربة مع طول الطريق وقلة الزاد . ولكن فى القلب قوة أعظم وهناك شوق مبهم يخالطه وعد غامض باللقاء ، وأحضان فى رحابة الأبدية ودفء الحياة كلها بكل أنواع الدفء . الريش والزغب والشمس والحب .

ومن الصندوق الكبير المطعم بأغلى الأصداف أخذ كل ما يملك من ذهب .. نقود عليها صور وثنية لكن ذلك لا يضر . فكما أن سيف قاطع الطريق بدأ فى خدمة الحق

فـإن النقـــود سـتفعل ذاك . كأنهـــا (خدعـــة) فـــى حـــرب مقدسـة .

مـر علـى حجـرة (بـوران) فدعـا لهـا ، وتصـور رأســها الصغير علـى وسـائد القطيفـة وبخور مـن الأعـواد المقدسـة أحـرق فـى حجـــرتها وحلمهـــا بالجـــاه علـى حسـاب المسـاكين ، فدعا لهـا .

أما أبوه وأمــه فكأنهمـا ماتـا وهـو صغـير ولم يـر لهمـا صـورة . وعنـد نهايـة الدهـليز نـادى اللّـه .. وفـى خلفيـة الـدار بـاب سـرى مفتـاحه فى قفلـه ، فـى جيـب مســحور فـى أســفل القفـــل لا يعلمه إلا ثلاثة ، فكـأن فـى البـاب قفـلا بـلا مفتـاح .

ســار إليــه الشـــاب . مــلأت روحــه رائحــة وداع ووعــد ، أما الوداع فكـان صامتـا بـلا دمـع ولا كـلام . وأمـا الوعـد فكـان فى غموض عبـير البسـتان لكنـه يؤكـد العـودة .. لكـن كيـف ؟

وانفـرج البـــاب الثقيـــل بـلا صرير كأنـه فـى عونـه ، ثـم رده خلفـه .. وقابلتـه آخـر ظلمـات الليـل وفطـن إلى نفسـه .. هـا هـو ذا فـى ملابـس أولاد الدهـــاقين . حريـر وقطيفـة . وفـــى جيبــه نقـود ذهبيـــة .. وضـــحك وهـــو يضـع كفـه علـى فمـه حتـى لا يســمع صوتـه حـــين اكتشـــف أن السيف معلق فـــى كتفـــه .. « اللّـه .. فـارس بـلا حصـان .. ومعـه سـيف أثـرى .. محلـى بـالجواهر .. » .

وعاد يهمس بضحكة .. ويقول فى نفسه : « ليست خطانا اليوم من صنعى وحدى .. بل أحس بقوة علوية لها الملكوت جعلت هذه المتناقضات فى مظهرى .. » .

ومشى .. كأن خطواته من هذه اللحظة أشبه بحركة المأخوذين .. يوم نشعر بأن إرادتنا متصلة بما هو أسمى من العصب المادى فكأنها صورة من شعاع عكسته مرآة .. وهكذا كان .. ولذلك سار نحو خظيرة الخنازير ودق الباب .

لم يسمع صوت إنسان ولا حيوان فى الداخل . ولم تكن الروائح المنبعثة من الحظيرة فى أنفه تحمل حديثها القديم بل حملت سرا آخر خاصا بها إذ وصلت إليه هو .. هو وحده .. وكذلك تدرك الأشياء ..

وعاود الدق .. رد عليه صوت مذعور فى شبه صراخ :

ـ نعم يا سيدى ..

وهرول الداعى وهو يردد الرد :

ـ افتح يا سيدى ..

ووقف الرجل خلف الباب مذعورا مذهولا يده لا تقوى على أن تلمس المزلاج .. أحد الناس ناداه بسيده .. راعى الخنازير هذا . وفى صوت من ناداه رنة صدق ، أحس معها الراعى أنه سيد حقا . وكأنما لذ له أن يستعيد ما حدث .. ظمأ يريد صهريجا بأكمله ليرويه .. فعاد يسأل فى مراودة :

ـ من ؟ من بالباب ؟ .



وتصور رأسها الصغير على وسائد القطيفـــة ،
وبخور من الأعواد المقدسة أحـرق في حجرتها

ـ افتح يـا سيدى ..

ففتح الراعى فمه ونسى أن يفتح البـاب : « ابـن الدهقـان ؟ هذا ليس معقـولا .. يا إلـه النور هـل آن لـك أن تنتصر على إلـه الظـلام ؟؟ » .

وفتح البـاب فدخل الشـاب وقـال لـلراعى :

ـ هـذه الملابـس لم تعـد تناسـبنى .. خذهـا وأعطنـى ملابسـك .. وخـذ مـن المـال مـا شئت ، لا تقـاطع ولا تمـانع فـإن السيف الـذى تـراه معى بـدأ يعمـل أعمـالا خارقـة .. وقـد كـان من قبـل فـى يـد قـاطع طريـق (وابتسـم) فـلا تجعلـه يرتـد إلى أصلـه أيهـا الراعـى .. وأنـا أعلـم أنـك لـن تلبـس هـذه الملابـس ولكـن ممكـن أن تبيعهـا .. لا تخـف . فليـس لى علاقـة بهـا منـذ الآن .. أصـبحت ضـيقة علـى جـدا . أحـس أنهـا تخنقنـى . ولا تذكـر أنـك رأيتنـى لأنـك إن فعلـت سـتموت بسـيوف كثـيرة . إن اللّه قـد امتحنـك بى أيهـا الراعـى .. لا شـك أنـك رجـل طيـب .. فسـارع ونفـذ ..

كـان الرجـل يسـمع صوتـا غريبـا . شـخص يعرفـه وصـوت ينكـره .. فبـدأ الشـاب فـى خلـع ملابسـه لكـن الراعـى سـارع وأحضر له حلـة كـان قـد جهزهـا للعيـد جديـدة نظيفـة ، وأخفـى ملابـس السيد فـى مكـان مـا حتـى يثـوب إلى رشـده .. وأخـذ الشـاب قبـل أن يرحـل إحـدى الخـرق ولـف بهـا مقبـض السـيف المحلى بـالجواهر . ثـم ودع الراعـى ومضـى .

٢

يبس الخبز الذى يحمله وهو فى انتظار القافلة التى ستأتى من الجنوب ليركب معها إلى الشام ، حيث سيلتقى هناك بأساقفة دينه الجديد .

وكان معه رجلان من النصارى ملأهما الخوف من أن يعرف أمرهما وهما يدلان ابن الدهقان على الطريق !

وجعل الشاب يتأمل أعينهما القلقة وهو يقول فى نفسه : « إنك إذا أصبحت أنت والذى تحبه كلا واحدا فإنك لن تحس بوجودك خارجه ، ومن أجل ذلك فلن يكون لك كيان مستقل فأنت إذن لا تخاف » . ثم هتف فى سره : « لكأننى ريشة غير محددة فى الجناح العظيم الذى يظل الكون . لكأننى ريشة مكررة تقع من الجناح فى كل مكان منه فأصبحت هى الظل المستظل .. فكيف أخاف » ؟ !

وعندما سمعوا حداء القافلة خرجوا من الكهف ، ولما رأى الشاب نور الشمس يملأ الوادى الذى يسلكه المسافرون شعر كأنه ولد من جديد . وكانت الدواب التى تحمل السجاجيد وكثيرا من بضائع فارس تسير فى نشاط بعد راحة يوم فى الطريق ، ومن أجل ذلك تأخرت .

وركب بعد ما أوصى به صاحباه وتركاه وعادا إلى القرية ..

وهناك سمعوا نبأ اقشعرت له أبدانهم ؛ نبأ سبقهم كأنما ليكون في استقبالهم وهو أن ابن الدهقان قد مات .

واجتمع ناس من الفلاحين عند بيت النار على التل ، وسار بعض الأغنياء وعلى وجوههم آيات كدر لوقوع مثل هذا الحادث لمثل هذا الشاب . أما الأب فقد أحس بأسى يخالطه فتور مستريح ، أسى من دفن عزيزا عليه عز عليه أن يعذبه المرض أو يلوثه العار .

لذلك فإنه عاش فى حزن صامت . لا يسأل ولا يجيب .

أما (بوران) فقد مزق الحزن نفسها . حتى ودت لو أنها صاحبته حيث كان ولحق بها ما لحق به .

فهناك على حدود أرض أبيه وجدت ملابسه ملوثة بالدم وفى الصدارية المزركشة الأرجوانية طعنات سيف قاطع . الصدارية والحزام فى مكان ، والسراويل فى مكان أبعد .. وسيف مكسور وبقع دم على الأحجار المنثورة والمؤدية إلى طريق وعر تنهض بعض القمم على بعد منه وتفغر بعض الكهوف أفواهها على جنباته .

وفى بيوت النار صلوات وفى قلوب أهل الدار أحزان .. وكل الذى حدث بفعل الأب ، أخذ (طقما) من ملابس ابنه وفعل به هكذا . وأحس بعدها راحة موهومة . راحة من دفن ابنه حقا ونجا من العار .

أما الراعى فقد كان بما عنده يعلم السر . وكان يذهب من وقت لآخر إلى حيث هذه الملابس المخبوءة ليقبلها ويشم فيها رائحة الإنسان ، ولم تكن السعادة التى فى قلب الراعى أقل كثيرا من السعادة التى ملأت قلب الشاب والقافلة تسير به نحو نهر دجلة .

ودخل عليهم الليل فتلألأت النجوم . وأخذ شاب يغنى فى مؤخر القافلة . كان عربيا جميل الصوت متوسط العمر بهى الطلعة ، وسمع الشاب غناءه فسحره . لم يعرف بعض ألفاظه لأن العربية التى تعلمها من أصحاب أبيه الذين كانوا يفدون من أرض الجزيرة وما بين النهرين لم تكن تسمو كثيرا إلى ما يتغنى به الشاب .

لكن الوله كان يفوح من كلماته . مثل نبات لا يعرف اسمه لكن رائحته تخاطب القلب . شىء كهديل الحمام أو لغة الموسيقى .

وشعر الشاب برغبة فى أن يكون إلى جواره فتأخر حتى سار إزاءه ، وبادله الحديث . بدأه ابن الدهقان قائلا له :

ــ إن صوتك أشجانى . ما اسمك أيها العربى ؟!

ــ آه .. اسمى سهيل .. هل ترى اسمى بين النجوم ؟!

(ورفع العربى وجهه إلى السماء وتبسم) انظر .. إن سهيلا يرتفع هناك ناحية اليمين .. أيها الفارسى ، إن صوتك فى الظلام يبدو وكأنه يحمل رنة العظمة . ما اسمك ؟

ـ اسمى ؟! .. اسمى ابن الدهقان ..

ـ هكذا فقط ؟!

ـ هكذا فقط !

ـ حسن .. (صمت وبعد قليل) ولماذا أنت مسافر ؟!

ـ بسبب الحنين .

ـ لكن وطنك ليس الشام . بل أنت من فارس !!

ـ غير أن من أحبه فى أرض غير أرضى !!

تمايل العربى وهو راكب وكأنه سكر بشىء وأخذ يغنى للحب . عادت نبرته أكثر رقة ورطبت بحته نداوة الدموع . وعندئذ بكى الشاب ، وكف العربى عن الغناء وسأل رفيق سفره :

ـ هل قلت شعرا فيمن تحب ؟

رد عليه صوت مشروخ فيه الأسى والرضا والشوق والصبر والاستعداد المطمئن لحمل المشقات :

ـ قلت فيه شعرا صامتا . هل تعرف نظرات العبادة ؟! حين ترى العين من تحبه ولا تراه فى وقت واحد ؟! وهل سمعت أذنك ذات ليلة صوتا ثم فتشت عن مصدره فتحيرت وأنت سعيد حين أدركت أن أذنك سمعت قلبك ؟!

ـ أيها الفارسى .. أذهلتنى .. ما سمعت قط مثل هذا الكلام . آه .. أوتينا البلاغة وأوتيتم الحكمة .. فمن تحب يا ابن الدهقان ؟..

ـ حبى جديد قديم لا أول له ولا نهاية ، لأنه عبير ذلك المحبوب .

رد العربى بعد تأمل :

ـ أيها الفارسى . إنك تتكلم عن (دين) . أليس هذا حقا ؟!

ـ بلى .. إنه حق !!

ـ وهل أنت فرح به ؟

ـ بل أنا ثمل به ، وما دينك أيها العربى ؟!

ضحك العربى فى حرج وعاد يغنى :

« يا حبيبتى عندما يسألوننى عن دينى فابتسمى لهم ...

« عندما يرون بريق الندى على ثناياك يا بيضاء سيكفرون بالأصنام ..

« حتى عبدة النجوم والكواكب سيسجدون لعينيك فى ليل شعرك الأسود ..

« الحياة والموت فى كفيك كأسان مترعتان بالسكر ..

« وعندما يسألوننى عن دينى فابتسمى لهم يا حبيبتى ... » .

(الباحث عن الحقيقة)

وصمت . وسكت الليل . ولم يعد يسمع إلا جرجرة الدواب على الطريق . وعندئذ قال الفارسي في نفسه : « إنه وثني » . لكنه شعر نحوه بحب مطرد . وأحس كأن علاقة عميقة الجذور تنبت الآن على شغاف القلب .

★ ★ ★

وها هو ذا نهر دجلة يلمح لعين المسافرين ...

والشمس تفرش الشط بأشعة لينة ، والفارسي يتأمل وجه العربي والعربي يتأمل وجه الفارسي وهما واقفان متجاورين كأنهما صديقان منذ أعوام .

كان النهر في إبان فيضانه والسفينة الكبيرة راسية على الشط والحمالون دائبو الحركة . هناك صناديق يستعصي حملها على الرجال ، فتقدم إليهم الفارسي مساعدا فرأوا منه العجائب .

وكان سيفه الأثرى في يد العربي يحملق في حده بعدما أخرجه من غمده الجديد .

وعندما فرغوا من شحن السفينة قدموا إليه بعض الدراهم فرفضها . إن معه نقودا وهو منذ اليوم عازم على ألا يأخذ أكثر مما يحتاج . وقد عرف بوضوح حدود حاجاته .

وإذا كان البناءون لا يأخذون أجرا على إقامة أحد بيوت النار في بلاده التي تركها خلفه ، فكيف يأخذ هو أجرا على أنه ساعد على السير بسفينة يركبها في سبيل اللّه ؟!

وأكل العربي والفارسي من طعام واحد عندما بدأ شاطئ عاصمة آل ساسان (المدائن) يتعد قليلا قليلا . وكان النهر عالي الماء وربان السفينة مجوسيا فسمعه الفارسي وهو يتمتم بأدعية المجوس ، وخيل إليه أن السفينة ستتعرض للخطر . وما لبث أن سمع أدعية تنبعث من بعض النصارى جنب أحد الصواري ، ثم انتشرت الأشرعة فما لبث أن سمع صديقه العربي ينادي اسما عرف أنه اسم صنم .

وعندئذ هاجت في نفسه خاطرة عجب لها ، وأحس أن اللّه لابد أن يجري بها مقاديره . وإذا كانت كل الطرق تؤدي إليه فليس معنى ذلك أن الخسيس منها يؤدي إلى اللّه !

والفكرة العظيمة لا تأتي إلا نتاجا لإحساس عظيم يسبقه إرهاص عظيم يهيئ النفس لهبوط الفكرة ، كما تتجلى الطبيعة لمقدم الربيع .

وفي الليلة التالية كان النهر ثائرا . وكف ركاب السفينة عن الكلام كأنهم يرون الموت تحت كل موجة ، وكان

الفـارسى يقـول فـى نفسـه : « ربمـا جئـت لألقـى ا لله فـى النهر !.. إننى الآن على يقين من أنـه خـارج بيـوت النـار .. هو هناك أيضـا على الجبل المجاور وفى السهل الذى يطل عليه ذلك الجبـل . وهـو هنـا فى النهـر .:. فربمـا جئـت لألقـاه هنـا !! » وتبسم لنفسه . وعندئـذ جـاءت مـن العربى تنهيـدة . فقال له الفارسـى وهـو يربت كتفـه :

ـ غن يا سـهيل .. لماذا كففت عن الغنـاء ؟!

ضحك سـهيل قـائلا :

ـ وهل هذا وقـت الغنـاء يا حديـد القلـب ؟!

ـ الغنـاء دعـاء ، فلو كنت محبـا لمن تغنى لـه لغنيـت سـاعة المخـاطر . ليكـن غناؤك عبـادة لا شـهوة .. نـاد اسم صنمـك !.

فهمهم سهيل بـه على استحياء ، فقـال لـه الفارسـى :

ـ مـا لى لا أشـم مـن ندائـك رائحـة الحقيقـة . لا تظننـى يـا أخـى أسفه إلهـك ولكنـى أسفه ضحالـة العلاقـة بينـك وبينـه الآن . لـو كـان حـاميك مـا أخـافك النهـر .. انظـر واسمـع .. فلـو تصـورت أنـك تعبـد هـذا النهـر كبعـض الهنـود ربمـا لم تخـف مـن الغـرق فيـه . ولـو عبـدت إلهـا تسـع مملكتـه السـماوات والأرض مـا خفـت مـن شـى ء فـى الأرض إلا ممـا لا يرضـى هـو عنـه . غـن يـا سـهيل . إن كنـت تحـب صنمـك فغـن لـه فـى المخـاطر

بقلب مطمئن . ألا تسمع همهمة المجوسى ... إن فكه يرتعش من الخوف من إله الظلام ..

وضحك الفارسى . وأخذ النهر يمرجح السفينة وأخذ النوتية ينزحون من السفينة الماء الذى اندفع إليها . ولم يلبث الفارسى أن نهض وتبعه العربى ففعلا مثل ما يفعل النوتية .

ولم تلبث ساعة الخطر فى هذه المنطقة الشديدة الانحدار أن انحسرت وبدا على الأفق ذلك اللون البنفسجى الساخر . وولى الليل ، وكان الجهد قد أخذ من الركاب كل مأخذ ولم يكن مع الفارسى ملابس غير التى بللها الماء لكن العربى ألبسه بعض ثيابه حتى جف ثوبه المبلل ، وأخذا يأكلان معا طعاما بعضه من المدائن وبعضه من بلح الجزيرة . ولما هدأت الخواطر أخذ سهيل يغنى وهو يبتسم .

« يا حبيبتى .. عندما يسألوننى عن دينى فابتسمى لهم ...

« عندما يرون بريق الندى على ثناياك يا بيضاء سيكفرون بالأصنام ... » .

وعندئذ ضحك الفارسى والعربى فى نفس واحد . وقال الفارسى فى سهوم وفمه على مقربة من أذن سهيل :

ــ سهيل ..

ــ نعم يا صديقى .. أنت مصدر طمأنينة عظيم ..

ــ سهيل . ابحث عنها تجدها .. إنها ليست بعيدة المنال . سهيل .. فى داخل كل منا نوع من الحشرات السامة ولن يستطيع قتلها إلا ذلك الذى تسكنه لأنه أدرى بأجحارها ومساربها ، وبعد أن يفعل ستنزل الطمأنينة حيث كانت هذه الحشرات . قل يا سهيل .

ــ نعم .

ــ إنك تتوسل بالصنم إلى الله .. هه ؟

ــ لا أحد يقينا ..

ــ فإن كنت تعبد الله لأنه خلقك فأحرى بالصنم أن يعبدك لأنك خلقته ، وليس العكس ، مالك صامتا .. إنك لا تجد اليقين ؟ حسن .. هذا خير .. وأنا مع يقينى أشعر أننى أبحث عن شىء . فبعض اليقين مرحلة ليقين أعظم . ألا ترى أن المجوسى والوثنى والإلهى فى هذه السفينة يظن كل منهم الآن أن إلهه هو الذى نجاها من الغرق ؟ وليس ذنب الإله العظيم أن ينسب الجهال بعض أعماله إلى (ما) لا عمل له . سهيل .. أطعمنى من تمر جزيرة العرب تمرة واحدة فإنى أجد لطعمها حلاوة فى نفسى قبل فمى .. لست أدرى لماذا ؟

رد سهيل فى همس :

ــ يا صديقى الفارسى لقد وصلت بى الآن إلى مرحلة كنت جاوزتها من قبل .. مرحلة ألا أومن بشىء .. وقد



سـهيل .. أطعمـني من تمر جـزيرة العـرب تمـرة

واحدة فإنى أجد لطعمهـا حـلاوة فى نفسى قبل فمى

عذبنـــى عليهـــا أبـــى وكـــان يســـتصحبنى قهـــرا إلى بيـــت الأصـــنام ، وهنـــاك أقـــف فـــأردد مـــا يقولـــون .. غـــير أن القـــلب لا يمكن أن يعيش هكـذا .. قلـــب لا صـــلاة لـــه .. إنـــه لـن يكـون إلا كبعـض الأزهـار التى رأيتهـا فـى بسـاتينكم تشـبه العيـون ولا تـرى ، وقبـل ذلــك فهــى لا رائحــة لهــا .. (وتـأوه العربـى ..) .

ــ لا تحـزن يـا سـهيل .. ولكـن لا تنـس نفسـك ..

★ ★ ★

وعند مدينة (آمد) قرب نهاية النهر اختلفت الطريق بالصديقين وأصبحت القافلة قافلتين .

فسار الفارسى مع النصارى وسار سهيل مع بعض صحبه ..

وكانت الرحلة برية منذ الآن ..

وتعانقا وفى عينيهما دموع . وقال الفارسى للعربى :

ــ عندى شعور عليه ظل اليقين أننى سألقاك يوما ما ..

ــ ربما كان المنى على هيأة شعور .. لعله الحنين يا صديقى كمـا تعلم ..

ــ لقد تركت خلفى أشياء كثيرة يا سهيل لا أرانى نادما عليها ، ولا شـاعرا بالحنـين إليهـــا .. ورائـى أب وأم وإخـوة وجـــوهر وذهـب ، وأرض ورقيـق ومركبـات يـا عربـى . وسـلطة ومكانـة . ورائى فى أرض ساسان كل ما تشتهيه نفس شبابها ..

لكنى لا أحن إليها .. لكنى أيها العربى أشعر وكأن شيئا من دمكم يجرى فى عروقى ..

تأوه سهيل :

- ليدعو كل منا إلهه بأن نلتقى مرة أخرى ..

جلجلت ضحكة الفارسى ساخرة :

- لن نلتقى أيها الصديق إلا إذا كان إلهنا واحدا .. تعال أقبلك ..

ثم افترقا على الطريق .. وبعد قليل من الزمن وسواد القافلتين لم يغب عن العيون ، كان الفارسى يجرى فى اتجاه العربى من جديد وكان العربى بالتالى يجرى فى اتجاه الفارسى . التقيا والعرق يتصبب منهما .. فتبادلا السيوف والقبل . فقد كان كل منهما قد نسى سيفه مع صاحبه . ثم فطنا إلى ذلك .

وعندئذ قال العربى لصديقه :

- ألا ترى أن هذا وعد جديد باللقاء ؟! رافقتك السلامة يا صديقى ..

★ ★ ★

٣

« آه يا رب ، رأيت كثيرا من عبادك على رقعة فسيحة من الأرض ، قليل منهم يعرف الطريق إليك وكثير منهم عاش يدور في حلقة مركزها نفسه ومحيطها شهواته .. إن نورك الذى يغطى السهل والجبل غير بعيد على بطون الكهوف ونفوس المخطئين ، وهأنذا أحس يا ربى أنك تختص بعظيم أسرارك كل الذين يبحثون عنها كأنك تسعى إلى من سعى إليك وتنسى من ينساك .

رأيت كثيرا ممن لا يعرفون حقيقتك يخدعون الناس عنك . وقد بكيت عندما رأيتهم يوهمون الناس أنهم واقفون ببابك يأذنون ويمنعون ، فبكيت من أجل أولاء المحرومين أكثر من الذين حرموهم ، لأنك لن ترضى عمن يسمحون لغيرهم بأن يبيعوهم رضاك وكلهم عبادك .

هأنذا سائر فى طريقى إليك مرة رابعة . ركبت ومشيت وجعت وعطشت وبت فى العراء ، وليس هذا منّا عليك يا إلهى ، ولكنه صلاة فى قدس محرابك . فاقبل صلاتى واهد خطواتى » .

هذا ما كان الفارسى يهتف به وهو يرى على البعد مشارف مدينة « عمورية » بعد ما ترك « نصيبين » وبعد ما أقام بها مدة من الزمن . كانت نفسه مليئة بالقلق فى هذه المرة ، وهذه هى أرض الروم التى يظنها خاتمة مطافه بعد أن ترك أرض الشام . سائر على طريق يلمع بآثار المطر شاق يرتفع بشكل غير تدريجى وحدائق اللوز والبندق والأعناب تنتشر فى بقاع متفرقة ، وبنية على السفوح ذات طراز رومانى وأكواخ رعاة . والشمس تلقى بشعاعها بين غلالات الضباب على الجبال فتعطى ألوان الطيف على القمم ، وعين المسافر مأخوذة وقلبه مشتاق .

ولم يلبث أن مر على دسكرة من الدساكر(١) المنتشرة فى الإقليم فلقى رجلا أنيق الهيأة يقود حصانا ليس عليه سرج ، وفى فمه شىء يمضغه وفى يده بقية منه لم يعرف ما هى . واستوقف المسافر بنظرة من عينيه القويتين . كانتا لم تتأثرا بوعثاء السفر وإن بدا جسمه ضاويا إلى حد ما . ووقف الرجل وهو يمضغ وعيناه تستجوبان المسافر فى غير مودة ، وعندئذ سأل المسافر :

ـ أين تقع صومعة الـ ..

(١) الدساكر : القرى الصغيرة .

فقاطعه الثانى و لم يكف عن المضغ :

ـ لست أعرف شيئا عن الصوامع .. أنا أريد سائسا للخيل فتعال إن شئت ..

والتقت العيون بعد ذلك فى تحد مثل ضربات السيوف . فقد شعر الفارسى أنه اتهم بالتسول ، و لم تفارق عيناه وجه الرجل حتى شل حركة فمه وتوقف عن المضغ ، وفجأة وثب إلى ظهر حصانه العارى وركض به .. ترى مم خاف ؟ .

وواصل المسافر طريقه فقابله أحد الرعاة معلقا مخلاة فى عصا سائرا يترنم .. ولما استوقفه بنظراته حملق الراعى فى عينيه وحاجبيه المقرونين ، وسأله المسافر :

ـ أين تقع صومعة الـ ..

فقاطعه الراعى بسرعة شديدة ، واتجه إلى ناحية الشرق وأخذ يشير :

ـ على بعد فرسخ واحد ستجد تلا عليه كنيسة قديمة ، وبعد أن تترك التل والكنيسة ستجد سهلا صغيرا فيه صومعة السيد العابد .. وهمهم : امنحنا اللهم بركاته » ..

★ ★ ★

و لم يكن أحد على مقربة من المكان ، و لم يكن على مسكن العابد علامة تدل عليه إلا الوحدة والتفرد . وأحس المسافر بعظمة

التوحد فى هذا المكان الذى يشبه القطعة الخضراء بين تلك التلال المحيطة . وعدل من هندامه شيئا ما (إذا صح هذا التعبير) وألقى نظرة إلى السماء وتقدم من الباب بخطا مشتاقة .

المكان بقية من بناء تداعى من الخلف وبقى جزؤه الأمامى ، والجزء الخرب يعادل تسعة أعشار المساحة والباقى العشر . وهناك فى الخلف آثار سور بنى على الطراز الرومانى كما أن الباب يومئ إلى نفس الطراز ، وعلى المدخل غموض ذكر الطارق بشىء جعله يبتسم : « من أرض كسرى إلى أرض قيصر وهى فى الحقيقة أرض الله » . ودق الباب بقبضة قوية لكن لا أحد يرد ..

وسكت وعاود الدق لكن الصمت ظل مطبقا فجعل الرجل يقول فى نفسه : « أعوذ بك من دعوة بلا رد ومن عين بلا نور » .

ووقف يتلفت . ومضت على ذلك فترة خالها فى طول الدهر لكنه أحس كأن حركة وراء الباب فوقف جامدا .

وتحرك مزلاج ثم انفتح الباب حتى التصق بالجدار وجاءه صوت خيل إليه أنه لم يسمعه لأن عينيه كانتا مشغولتين بمطالعة الوجه الذى فتح الباب ، وكان الصوت يقول بنبرة وانية مرتعشة :

ــ هل جئت ؟.. إننى فى انتظارك .

أخذ قلبه وخطا نحو الداخل و لم يرد بل تنحنح كأنما ليشعر من أمامه بأنه موجود . وشعر الطارق بضآلة شديدة على طوله العملاق . ولو أن العابد فى ضآلة تكاد تبلغ الغاية . وراعه أن سبقه إلى حيث يجلس مشيرا له بيده أن يقفل الباب ويتبعه . وراعه أيضا أنه شبه مكفوف . خطواته وانية لا صوت لها كأن قدميه فى حذاء من القطيفة .. رقبته من الخلف ناحلة وشعره محلوق كما اتفق وعوده يبدو كأنه صب فى قالب مستطيل من فرط التساوى فى النحافة .

وخيل إلى الضيف أنه يمانع نفسه التى تنازعه من أن يتقدم إليه ويحمله على كفيه حتى يصل به إلى مجلسه ، لكنه ظل يتبعه فى صمت حتى دخل حجرة ذات نافذة لها قضبان من الحديد تطل على الجزء المخرب من المبنى ، وقد فرشت بفراش من الصوف الخشن ذى لون واحد ، وفى ركنها مدفأة من النحاس وفى ركن آخر كتب وحشايا على الأرض .

ـ آه .. كنت بانتظارك ..

فتقدم منه وقبل كتفيه وجبينه ثم سأله :

ـ حقيقة أنك كنت بانتظارى .. لكن من أخبرك أننى ..

وقطع العابد عليه حديثه بضحكة طيبة ، وذقنه المدبب يلامس صدره :

ـ هذه تحية القدوم لكل من يدخل .. لأن الذى يأتى إلى هنا لابد أنه لاقى مشقة . ولذلك فأنا فى انتظار مستمر لكل من يطرق هذا الباب .. أهلا بك يا بنى .. من أين أنت قادم ؟

ـ حديث طويل مثل الطريق يا سيدى ..

غمغم العابد :

ـ مالك ضجرا قلقا مستعجلا نهاية الطريق .: لا يزال أمامك شوط آخر .

فتح الضيف عينيه فى وجل ، فقال العابد :

ـ عندى دائما طعام لاثنين .. فهل تأكل ؟

ـ أنا جائع يا سيدى إلى ما هو أسمى من الطعام .

ـ وهل أنت عابر سبيل ؟!

ـ لا .. كنت فى (نصيبين) مقيما مع (عابد) هناك فلما حضرته الوفاة دلنى عليك ، وقبلها كنت (بالموصل) ، وقبل (الموصل) كنت عند أحد النصارى فى الشام ، وهأنذا جئت لأقيم معك .

ـ مرحبا بك (وابتسم) .. ولكنك جئت والشمس تغرب . ليت الله يمد قليلا فى عمرى .. الخيرات كثيرة .. ستزرع معى

الخرائب في مؤخر الدار وتجنى معى العنب وتنسج معى الصوف .. وتلتقى بالرواد . ولكن أيها الفارسى .. كيف حال كسرى ؟

ــ صديق النار . يعبدها . ويأكلها . ويجرى لهيبها فى عروقه فيطفئه بالملذات هو وعدد كبير ممن حوله . وطبقة أخرى من الأغنياء .

ــ أعرف . وليس قصدى هذا .. حاله ستتحول .. وأنت كذلك ..

شعر الفارسى بخوف عندما سمع هذه الكلمة وإن كان فى قرارة نفسه يبحث عن التحول . ها هو ذا قد أمضى بضع سنين فى خدمة الأساقفة والأحبار . لكنه يحس بالظمأ والجوع . زاد تطلعه الروحى بفعل ما لقيه من تناقضات ، فالعبّاد والأحبار الطيبون أوحوا إليه بشىء أبقى وأشمل وأعم . كاد القلب يلمسه وإن لم يعرف موضعه . أما غيرهم ممن أكلوا أموال الناس بعد أن جمعوها للفقراء فقد وقفوا بقلبه على باب نظام جديد لم يكن فى الحقيقة حلم الفارسى وحده بل كان حلم كل من له قلب . وقال فى نفسه : « خطوتى وراء أشواقى فأين المستقر يا ربى ؟ » .

وضحك العابد كأنه سمعه ، ورفع صوته قائلا للضيف :

ــ هل معك سيف ؟! أرنى سيفك .

قدمه إليه دهشا . فتحسس العابد حده وهو باسم كأنه يتحسس وجه ابنه الذى غاب عنه وعاد . ثم رده إليه قائلا له :

ـ لقد تغيرت أرضه وتغير غمده وأكبر الظن أن هذا سيحدث لصاحبه .

ـ إننى خائف يا سيدى ..

ـ من نفسك التى ستفقدها أو نفسك التى ستجدها ؟ قص على حياتك فى بلادك .

ففعل ..

★ ★ ★

ولما فرغ الفارسى من قصته بدا عليه من الجهد والتأهب ما أحس به العابد . كانا جالسين على حشية مشتركة كبيرة محشوة بالقش . فتحسس العابد كتف الشاب العريضة وقال له :

ـ قم بنا لأريك معالم المكان ..

ونفذا إلى الشمال من بقية باب فى نهاية دهليز طويل تفوح منه رائحة رطوبة . كأنما كان فى قديم الزمان مدخلا لسجن . وعند الباب من الشمال تقع رقعة كبيرة من الأرض ، منبسطة تقريبا وفى نهايتها وأرفع مكان منها بئر عميقة وحبل دلو . وبجانب كل هذا بعض أدوات الزراعة . وبعض شجرات عنب وأشجار من فواكه وخضراوات لا تجد من يرعاها .

كانا يجولان معا فى هذه المزرعة التى تكاد تبلغ فى مساحتها بضعة فراسخ مربعة . العابد أمامه وهو يتبعه كأنه يدله على طريق . وأحس الفارسى برغبة شديدة فى أن يعمل بهذه الأدوات مثل رغبته تماما فى أن يصل إلى الحقيقة المطلقة التى يقطع فى سبيلها أركان الأرض . ولم يلبث الرجلان أن وقفا إلى جوار البئر وجاء صوت العابد وانيا :

ـ هلم .. اسق هذه الخضروات وعد إلى الداخل لنتناول طعامنا معا . وإذا رأيت أنك لن تخلص من عملك قبل دخول الظلام فتوقف عند غروب الشمس ، وستجدنى هناك قد أوقدت المصباح وأعددت العشاء يا ولدى ..

ثم تركه وسار يتدحرج . خطواته لا تسمع وهيكله لا يكاد يرى . وتبعه الفارسى ببصره وخيل إليه أنه فى حلم .

هذا الرجل الذى طبقت شهرته الآفاق تقتحمه العين لأول نظرة ، لكنه إن يتكلم تغير الموقف .

ومال الفارسى على الماء وأخذ ينزح . وكان يتأمله وهو يجرى فى لجج فضية متتابعة نحو أرض المزرعة الصغيرة التى تقيم أود النفس الكبيرة . وأخذ يوازن بينها وبين مزرعة أبيه التى يملؤها العبيد . ثم مال يسأل نفسه وهو يحملق فى أعماق البئر .. « لماذا لم يرحلوا كما رحلت ؟؟ فمزرعة صغيرة بها حُر واحد أخصب من مزرعة كبيرة سكانها عبيد » ..

وأخذ يتصور أفواجا من الناس قد ملأهم العزم الذى ملأ قلبه خارجين من أرض كسرى ليتركوه وحيدا فيها .. « عندئذ لن يستطيع كسرى أن يكون الظالم لأن الظلم لا يعيش إلا على المظلومين » .

وتنهد وزقزقت فوق رأسه طيور لم يسمع مثل صوتها قبلا ، وفرغ من عمله والشمس لا تزال على مقربة من الأفق . فعاد أدراجه .. قطع الدهليز الطويل مرة أخرى فى ظلام لا يخيف ووصل إلى حجرة العابد ، فلما أحس وقع خطواته من بعيد هتف :

ــ هل تعبت ؟

ــ بل انتهيت من العمل .

تنهد الشيخ :

ــ قوة . نفحة من قوة اللّه .. حسن .. تعال .. مكانك إلى جانبى فإن الليل هنا شديد البرد .. ولكن قبل أن تجلس ناولنى هذا الغطاء الصوفى ..

ونشره العابد فإذا به قسمان ملفوفان بعضهما فى بعض بحيث يمكن فصلهما إن وفد عليه وافد ليكونا غطاءين .. وفصلهما الفارسى وقال له الشيخ :

ــ هذا غطاؤك .

كان نور مصباح ينتشر فى المكان هادئا ، ورائحة لحم تنبعث من قدر على نار فى ناحية من الدهليز الآخر . وقام العابد فجهز

عشـــاء بنفسه من اللحم والخضروات والفاكهة .ولما قـال لـه الفارسى :

ــ اترك لى أمر خدمتك ..

قال له :

ــ سيكون كل شيء بيننا قسمة .. العمل والثمرة .. لكن لن أبذل أكثر من طاقتى ولن تبذل أكثر من طاقتك .. وسترى أنى آكل من زرع يدى وألبس من صنع يدى .. العمل والعبادة شيئان مباشران فى نظرى لا واسطة فيهما .. تقدم وخذ طعامك .. ومنذ غد سنزرع معا وننسج معا ونعبد الله معا ..

لم يأكل الفارسى طعاما أشهى من هذا .. لم تكن الأوانى لامعة . لا فضية ولا ذهبية كالتى تركها فى أرض فارس لكن طعامها كان غذيا . و لم يكن الخبز طريا ولكنه طرى بالماء ثم وضع على النار فصار ذا نكهة . وجعلا يتحدثان وهما يأكلان ..

قال الشيخ :

ــ سترى هنا ناسا يمرون أثناء عبورهم علينا .. وستسمع أحاديث جديدة ..

فسأل الفارسى :

ــ لكن يا سيدى . ما الذى أتى بك إلى هنا فى هذه البقعة وحدك ؟؟



لكن يا سيدى ، ما الذى أتى بك إلى هنا فى هذه البقعة وحدك ؟؟

ـ آه . إن لذلك قصة سوف تعرفها . لكن علينا قبل أن ننام أن نجلس ساعة إلى المنسج فهو مصدر رزق لى .. هلم معى ..

وفى حجرة أخرى كان منسج وخيوط من الصوف شدت للعمل كلها من لون واحد ، وإلى جانب المنسج قطعة صغيرة فرغ منها . وعرف الفارسى أنها معدة للبيع . غطاء صوفى من لون واحد خشن غليظ . يمكن أن يكون فى كوخ أحد الرعاة أو الفلاحين .

وانكب العابد على المنسج وجلس الفارسى يراقبه . خيوط (السدى) ممدودة وبينها يجرى العابد خيوط (اللحمة) بأصابعه المعروقة بلا أدنى مشقة وعيناه قريبتان جدا من الخيوط كأنه يقرأ عليها مكتوبا .

وفى جو المكان رائحة صوف ورطوبة وأرض مزروعة وتوابل وعرق . لكن هناك رائحة تغطى كل هذا وتطفو عليه هى رائحة (الفكر والتأمل) . كان الصمت الذى يغلف الأشياء مهيأ لأن ينطق بحكمة لم تسمعها البشرية من قبل .

وأحس الفارسى باستقرار قلبى لا مثيل له ، وجعل يوازن بين هذه الإقامة وما سبقها من إقامات فشعر بما يشعر به النائم حين ينقلب تلقائيا على الجنب الذى يريحه بحركة حلم وهو لا يدرى .

تنهد الشيخ وقال للفارسى :

ــ كنت على وشك أن أخرج صباح الغد لأبيع هذا الغطاء فعليك إذن أن تفعل ذلك فى السوق القائم على مقربة من المدينة .

ــ أمرك يا سيدى .

قال العابد مبتسما وهو يضغط الخيوط :

ــ هل أصف لك الطريق .. إن مثلك لا يضل ..

ــ سمع الله منك .. لكنى أود أن أسمع ..

ــ قصتى ؟؟

ــ إن شاء سيدى ..

ــ تعال أولا واعمل بيدك . هاتها . مرر الخيط هكذا ثم هكذا ثم اضغط .. وباستمرار العمل نحصل على غطاء .

وبعد ساعة من الزمن عادا إلى الغرفة الأولى ..

كان الجو قد تغير . وبدأت ريح لينة تحف بالأشجار . وأوقد الفارسى لهما مدفأة وجلسا أمامها ، وشرع العابد يقول :

ــ أنت خير منى أيها الشاب . (فعض الفارسى شفته استعظاما واستنكارا) لا تعجب فأنت قد تركت أرضك وأهلك والمراكب والعبيد وخرجت تبحث عن الحقيقة .. لأنك لم تجد الحقيقة فى شيء مما حولك . لم تجدها فى بريق الذهب ولكنك ربما ستجدها فوق رأس نخلة وأنت تحصد أو تحت أقدامها وأنت تزرع . وستجد

تلك الحقيقة المطلقة الكبيرة التى هى اللّه أو الطريق إليه ـــ ستجدها فى الحب لا فى الحرمان . ستجدها فى ابن ترعاه لـترعى غـيره مـن عباد اللّه وفى زوجة تحبـك وتخلـص لـك وتخلص لها . وفـى هـذه الأرض تـزرع الفضـائل . الأرض لا تلغـى مـن الإنسـان شـيئا بـل تعترف به طينيا ونورانيا ويكون فى كلتا الحالتين عبدا طيبا من عبيـد اللّه .

وناوله الشـيخ قدحـا مـن شـراب دافـئ وأخـذ لنفسـه قدحـا .. لاحظ الفارسى أن أصابع الشيخ ترتجف وأن ذكرى إنسانية عميقـة استيقظت فى داخله فعرف أن الطريق إلى التجرد وعر .

وساد صمت قدسى بين اثنين يسأل كل منهما صاحبه ويدله فى وقت واحد ـ عن الطريق إلى ا للّه .

وبعد رشفات من الشراب الدافـئ الـذى مـلأت رائحتـه المكـان ابتسم العابد وقال :

ـ إليك إذن قصتى التى سألنى عنها ناس كثير ولكننى لم أقصهـا إلا على قليل من الذين ارتاح إليهم قلبى ..

« كان أبى صيادا لم يبحث قـط عـن لؤلـؤة . (وتبسـم) كـان يصيد أردأ أنواع السمك . وكان يحب كـل شـىء فـى الدنيـا حبـه لذاته . فكان يحب الصيد الكثير لكى يجعلـه أمـيرا علـى الصيـادين . ويحب أمى لأنها صورة منه مع اختلاف الجنس . ويحب البحر لأنـه

مزرعة لرغباته . ويحبنى أنا ابنه الوحيد لأنه يريد أن أرث عرش رغباته .

أما أنا فكنت أحبه بلا تفكير لأننى كنت ابن خمسة عشر عاما .

وفى يوم من الأيام ركب أبى قاربه ومعه أمى ونزلا للصيد معا فى أسبوع وامتنع فيه الناس عن نزول البحر وانتظرناه فلم يعد .

ودعنا من شماتة الناس فيه يا بنى فلو كان عضوا من الجسم ما شمت الجسم فيه . لكن القصة قصتى .

صرت أنام فى الكوخ وحدى . وكان بعض طيبى القلوب يواسوننى بالسهر معى حتى أطلب إليهم العودة . لكن بعد أن يعودوا أحس بأننى على وشك أن أسمع خطواتهم وأشم تلك الرائحة المألوفة التى تنبعث من ملابس الصيادين . وتطول فترة الإحساس هذه دون أن يقطعها شيء .. انتظار عجيب نهايته لا شيء . فأحس وكأننى سقطت من أعلى جبل فأنهض من الكوخ وقد أخذنى الدوار وقد فقدت الوعى . وإنما أسير هكذا كما يمشى حيوان تقوده خطاه ..

وفى كل ليلة يحدث لى هذا . وفى كل ليلة أجد نفسى على شاطئ البحر وحيدا تنازعنى الريح ثوبى وتبدد ندائى وتكاد تخطف

سمعي من صفيرها فى أذنى . غير أنى كنت أقف وقد سددت أذنى بإبهامى يدى ، وصرت أصيح ونصف نظرى إلى السماء ونصفه الآخر إلى البحر . هل تدرى ماذا كنت أقول ؟ كنت أقول : « إن كنت قادرا بحق يا إلهى فلا تتركنى وحدى . أعد إلى أبى وأمى . سأحضر هنا كل ليلة حتى تفعل » ..

واتسعت عينا الفارسى من الدهشة وكانت عين العابد مغرورقة بالدمع . وسمع الشيخ تنهد الشاب فتبسم ومد يديه المعروقتين إلى بقية الجمر ليستدفئ ، ثم استطرد :

ـــ كانت الرعدة تملأ جسمى عقب كل نداء . وكنت أكرره بضع مرات ، حتى أحس بقلبى أنه فعلا قد وصل إلى اللّه وأنه قد أخذ فى تدبير الأمر فأعود إلى الكوخ شبه محموم .

لكننى فى الليلة التالية لا ألبث أن أحس بالشوق . وكان شوقى يزداد ليلة بعد ليلة والخوف بنفس النسبة . حتى شعرت أننى أتمزق .. شىء يدفعنى وشىء يردعنى .. كلاهما قوى .. وأنا صغير . فكنت أخرج من الكوخ باكى العينين مرتجف الأوصال لأذهب إلى البحر وأنادى من كل قلبى .

قال الفارسى فى نفسه : « لابد أن يحدث شىء فهو أرحم من أن يدعه يتمزق » . وعندئذ جاءه صوت العابد مسترسلا :

ـ لم يرنى أحد و لم يسمع ندائى أحد إلا الله . هو وحده الذى يدرك معنى الهفوات وبميزانه الذى لا يحيف يعفو عن السيئات ، فلو سمعنى الناس لقالوا إننى مجنون .

لكن المدى طال وأنا أفعل ما أفعل ، كلما سقطت تحت وطأة الانتظار الذى لا يعقل . ثم كانت الليلة الأخيرة . كانت نشيطة الريح فلم أبال . شديدة البرد فلم أبال . كثيرة المخاوف فلم أبال . كان كل هذا باطلا والحقيقة هو ما أريده ، هو أننى سأطلب من الله أن يعيد إلى أبى وأمى ما دام قادرا ..

وقفت على صخرة لأحس أننى مرتفع . والدنيا ظلام والبحر متتابع الموج . وجعلت إبهام كل يد فى أذن ونظرت إلى البحر وهتفت بأعلى صوتى : « إن كنت قادرا بحق يا إلهى فلا تتركنى وحدى .. أعد إلىّ أبى وأمى .. سأحضر هنا كل ليلة حتى تفعل .. » .

خيل إلى أن صدى الصوت ملأ المكان حتى رددته كل الكائنات فهو يعود إلىّ من أفواهها من بعيد وقريب . من الجبل والشجر

والموج والقوارب المقلوبة والرمل والسحاب . ثم صمت كل شيء فجأة .

ورأيت أبى وأمى يخرجان من الماء يخوضان إلى الشاطئ كأنما كانا يستحمان . لكنهما عندما اقتربا منى والماء يغطى نصفهما الأسفل ونصفهما الأعلى عريان ظاهر ، سألانى معا بوجه غاضب وفى نفس واحد كأنهما يلقيان شيئا حفظاه :

ـ هل تريدنا حقا ؟

فقلت بإخلاص :

ـ نعم .. وإلا لما فعلت هذا .. لقد سمع ا لله ندائى ..

ـ إنه يسمع كل نداء ويعفو عن الجاهلين . هل تود أن نخرج إليك حقيقة ؟

فأشرت بكفى أن « نعم » لأن ريقى كان جافا ولسانى لا يستطيع الحركة .

فتحركا نحوى فإذا بى أرى ما أصرخ منه وأغمض له عينى .

فقد رأيت نصفهما الأعلى كما عرفته ونصفهما الأسفل على هيئة الأسماك .. فصرت أدعو ا لله بأعلى صوتى :

« إن كنت قادرا بحق يا إلهى فأعد أبى وأمى إلى البحر فلا أستطيع أن أراهما يموتان مرة أخرى على الأرض كما يموت

السمك . ويكفينا أن نفقد الأحباب مرة واحدة فى العمر » .

فسبحا فى البحر عائدين . وشهقت ..

كنت حين شهقت فى كوخ أحد الصيادين . التقطنى ذلك اليوم من جنب الصخرة وأنا أصارع الحمى . وكان يسقينى شرابا دافئا مضافا إليه بعض أعشاب الجبل .

ومنذ ذلك اليوم وجدت فى نفسى شوقا إلى إدراك الحقائق الأساسية فى الوجود . فتعلمت من الأحبار الذين رحلت إليهم ما تعلمت .

ــ ولم تتزوج يا أبى ؟

ــ ليس عن قصد . فقد ملئت حياتى بالعجائب .. أوه .. ألا ترى أننا قد قطعنا وقتا طويلا من الليل وأنت متعب من الرحلة ، آن لنا أن ننام يابنى ..

★ ★ ★

عاد الفارسى من السوق بعد أن باع الغطاء الذى فرغ العابد من نسجه وبعد أن اشترى من ثمنه صوفا جديدا ومطالب أخرى .

كان العابد فى الحقل يعمل فى السقى والعرق يتصبب منه . عندما وضع الشاب ما اشتراه ذهب إليه وخطف الحبل منه وشرع يسقى .

وجلس العابد على صخرة غطاها الطحلب ونمت حولها أعشاب ذات أزهار ، وأخذ يمسح بكميه وعلى فمه ابتسامة من يعرف سر الهموم التى لونت وجه الشاب ، وقال :

ـ ماذا رأيت فى السوق يا فارسى ؟

ـ رأيت ناسا يا سيدى ..

ضحك :

ـ لابد أن يكونوا ناسا .. فاللّه واحد .

انتفض الشاب حتى سقط الحبل من يده وهوى الدلو إلى قاع البئر . فمد الشاب كفيه إلى العابد كأعمى يتلمس الطريق وعلى ملامح وجهه دلائل البكاء ، وقال هامسا :

ـ أبى .. ذلك ما كانوا يتنازعون فيه فى السوق . النصارى .. اختلفوا فى أمر دينهم وعادوا مفتونين فيه .. وهناك ناس عادوا إلى الأوثان لأن الأحبار والرهبان أقفلوا أبوابهم وأفواههم على الحقائق وتركوا الناس يموجون .. أبى ..

فرد الشيخ فى يقين من يعرف أمرا :

ـ لا تجزع . انزل إلى قاع البئر وانتشل الدلو .. لكن .. انتظر حتى أربط فى وسطك حبلا ، فإذا أحسست ضيقا فهز الحبل لأرفعك إلى أعلى ..

هتف الفارسي في نفسه : « وإلا لماذا جئت إليك .. جئت لأهز الحبل فقد بلغ بي الضيق منتهاه ولكي ترفعني إلى أعلى » .

ثم أخذ الفارس يسقى وأخذ العابد يتكلم :

ـ ولندع أمر الذين اختلفوا في السوق لله فهو عما قريب سيتولى أمرهم . وسأحدثك عن بقية قصتي :

« احترفت الصيد بعد أبي مدة ولكنني رأيت أن السمك أرخص ما يصاد . كنت أحس أن في قاع البحر لآلئ ، وكنت أسمع عن صيادي اللؤلؤ في البحار الدافئة ، فتمنيت أن أصل إليها ، حتى دفعني الحب إلى أن أقف على ميناء أزمير يوما ما وأسأل عن سفينة تقصد نحو هذه البحار . ونظر الرجل الذي أحدثه إلى قامتي الضئيلة وقال لي :

ـ هل تريد أت تتعلم صيد اللؤلؤ ؟

فقبلت يده وصدره وكتفه ورأسه وهو يبتسم لي ، وكان ضخم الجسم متين البنيان كأنه جندي روماني خلع لتوه عدة الحرب ، فإذا به يقهقه ويرفعني بين ذراعيه مداعبا مثل دمية صغيرة ..

(الفارسي يستمع والخضروات تنتعش بالماء وطيور مختلفة الأنواع على إحدى أشجار اللوز مائلة بأعناقها تنظر إلى بعيد) ..

وعندما رفعنى أحسست أن السماء قريبة منـى . ولما أنزلنـى إلى الأرض أحسسـت بثقـل غريـب فـى جســمى كأنــه زاد قنطـارا . وبعدئذ عاد يسألني :

ـ هل لك أحد ستستأذنه ، أو لك أحد ستهرب منه ؟

فأكدت له أنى لا أحد لى فأسـتأذن منـه ولا أحـد لى سـأهرب منه ، ولكنني (وتدله صوته) لى أحد أبحث عنه ..

فضحك الرومانى وقد أنست به .

وأقلعت السفينة من الميناء والليل جاثم علـى الجزيـرة وأنـا صبـى أحمل إلى البحارة والنوتية ما يشاءون وأنقل مـا يشـاءون مـن مكـان لمكان . غير أننى أحسست بالخوف بعد ما غابت الأرض عن عينى عـدة أيـام . ولم أعـد أرى فـى النهـار إلا نفـس الحيتـان وفـى الليـل أسماكا تضئ كلهب يسبح . وكنت فى كـل ليلـة أحـس أن جسـم أبى وأمى تحت السفينة . إنهما فى هذا البحر بلا مراء . ليسا سمكـا كما صور لى خيالى المحموم لأنجو من الشوق بل طينا ذاب فى المـاء .. أحسسـت بهمـا كأنهمـا معـى . وهكـذا يمكـن أن يحـس المـرء بالكائن الأعلى .

ثم سكت الشيخ ومد يده فى صمت بعد أن قـام عـن الصخـرة وأمسك بالحبل ليسقى بدل الشاب فمانع ، لكنـه شـده منـه بعنـف عجب له الفارسى ، وأشار الشيخ إليـه أن يجلـس هـو حيـث كـان يجلس على الصخرة بين الأعشاب .



حتى دفعني الحب إلى أن أقف على ميناء أزمير

يوما وأسـأل عـن سـفينة تقصـد هذه البحار

(البـاحث عـن الحقيقـة)

وأخذ العابد يسقى ويحكى .. ضحك قبل أن يبدأ :

« وفى ضحا يوم أعلن الربان أن عاصفة فى طريقها إلينا ، وغطى السفينة هرج ومرج . وأخذت أنا أنظر إلى البحر .. وكنت قد علمت أن البحار خدعنى وأن السفينة ليست فى الطريق إلى مصايد اللؤلؤ وإنما هى فى طريقها إلى البندقية . لكن عندما توقعنا الغرق قلت فى نفسى « لا شك أن بحار الدنيا فى الغرق سواء » .

وانقلبت السفينة ، وكنت أجيد العوم . والتقطت وأنا على سطح الماء أحد الصناديق الكبيرة وركبت عليه . لكننى فى طول هذه الفترة التى كنت فيها غريقا حيا كنت لا أذكر إلا شيئا واحدا ، هو وقفتى على الشاطئ ودعائى إليه أن يعيد « أبوى » الغريقين .

وقلت فى نفسى : « هأنذا فى الماء الذى ذابا فيه .. وسأذوب بدورى .. أليس هذا لقاء ؟ وربما التقينا فى بطن حوت . أليس ذلك خيرا من بطن دودة ؟ .. » .

ورأيت الله على ظهر كل موجة ومن خلال كل سحابة ، إلى أن يسر لنا من نجانا وحملتنا سفينة كانت فى نفس الاتجاه .

وسكت العابد ومسح عرقه بكميه :

ـ قم بنا لنتغدى ونستريح ..

★ ★ ★

وفى المساء جلسا إلى المنسج ..

أخذ الفارسى يعمل وكأنه تعلم منذ شهور : « يد اللّه لا تكف عن العمل ، فلنكن صورة منه » . والشيخ يحملق بعينيه الكليلتين ويبتسم ثم قال له :

ـ لكن السفينة التى نقلتنا كانت ذاهبة إلى أحد الموانئ الغربية ، ولما نزلنا هناك سمعت الناس يذكرون اسم روما .. ووقفت حائرا لا أدرى ماذا أصنع وأنا شاب قد تجاوز العشرين ، وسألنى أحدهم عن سبب رحلتى ؟ فلما قلت له : إننى كنت طامعا فى أن أكون صيادا للؤلؤ قهقه وصفق . وسلمونى لحرس الميناء ذلك الذى رحلنى إلى مكان بعيد عن الميناء بعدة فراسخ واقعا على سفح جبل ملئ بالرهبان . فاتخذونى خادما لهم .

كنت أجلس مختبئا على مقربة من سمرهم فرأيتنى أعشق ما يقولون . كانوا يتناولون فلسفة القدماء ويتناقشون فى التوراة والإنجيل كلما اجتمعوا لطعام أو حديث . وأحسست لقربى منهم بما هو نابع من ذاتى . أحسست أن كل الذين « شكوا » أو « رفضوا » « أو عددوا » لم يهتدوا . وأن « عقل الكون الطهور » لابد أن يكون واحدا ، وما دام « عقلا » فلابد أن تكون الوحدانية من صفاته .

ولما رأونى أحوم حول مجالسهم شكوا فى مدى معرفتى ، فلما سألونى أجبتهم . ولما ناقشونى ناقشتهم فتبنانى أكبرهم وقبلنى وهو يقول لى : « يا راهبا خارج الدير » . وقد تعلمت منه الكثير .

عندئذ توقف الفارسى عن العمل ونظر للشيخ قائلا له :

ـ لقد سئمت فى أرض فارس من صراع إله النور وإله الظلام فرحلت أبحث عن الحقيقة ، وأبكى عينى اليوم يا سيدى وأبى أنى رأيت فى السوق رجلين من النصارى يتصارعان ، أحدهما يبيع خبزا والآخر يبيع نبيذا . وقد ترك كل منهما بضاعته واعتدى على الثانى . فمزق بائع النبيذ خبز صاحبه وأراق بائع الخبز نبيذ صاحبه . فاصطبغ الخبز بالنبيذ كأنما أريق عليه دم ..

وعندئذ أطرق العابد . وساد صمت ، ثم سمع دق على الباب .. دق متواصل ملح قلق . فقام الفارسى وفتح . كان يحمل معه مصباحا ، وعندما وقع وجه الطارق على وجه الشاب تراجع الطارق وهو يهمس :

ـ هل أنا مخطئ إلى هذا الحد ؟

وتلفت حوله . يريد أن يقول : ليس هناك صومعة أخرى .. فسارع الفارسى قائلا :

ـ لا .. إنه هنا .. وأنا ضيف عنده .. ادخل .

كان رجلا فى منتصف العمر ، كان عليه هيـأة التجـار ، وعلـى سـحنته الحـزن والثـورة ، ودخـل إلى العـابد فـى حجـرة المنسـج والفارسى ينير الطريق بالمصبـاح . فلمـا وصـل إليـه جلـس متهالكـا وأخذ يتكلم وهو هائج :

ـ أفتنى يا سيدى فإنى سأزل . إنى حزين القلب والعقل معا .

رد العابد فى اطمئنان كأنما ليهون الأمر :

ـ معا ..؟؟ هذا عجيب ..

ـ معا يا أبى .. لقد جئت إليك من الموصل ، حيث هناك يشتهر اسمك .

ـ مرحبا بك .. لكن كيف تبكى ؟

ـ ابنـى .. مـات فـى مصـر .. ذهـب إلى هنـاك يحمـل مـن المنسوجات ليتجر فيه فقتل .

ـ لقى ربه ..

ـ إن هناك فتنة يا أبى تقوم حول عبادة العذراء .. نسـينا حقيقـة ديننا . من هذا الذى سيضع الحد لهذا كله يا أبى ؟؟

قال العابد فى همس :

ـ السماء .. (ثم أشار للفارسى) وهذا شاب آخر يضرب فـى أنحـاء الأرض حائرا . يا بنى .. أنتمـا الاثنين . لن يدع اللّه عبـاده

هكذا .. لقد أيقظ المسيح فى أتباعه الضمير الإنسانى : « ملكوت اللّه فيكم » . لكنهم فتنوا ، وها هى ذى يا بنى .. أنتما الاثنين تريان أن شريعة بنى إسرائيل قد فقدت قيمتها فى هذا الزمن .. بليت . ثم يا بنى أنتما الاثنين .. ها أنتما تريان أن قوانين روما الأرضية قد نخرها السوس كما نخر عظام هذه الدولة ، والمسيح يا بنى أنتما الاثنين .. لم يأت بشريعة أرضية . « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .. لا تبك أيها (الموصلى) فهذه إرادة (الواحد) .. وأنتم فى هذه الأيام مفتونون .. والأحبار يعلمون أن اللّه لن يدعكم ولكنهم يكتمون الحق ، لا تبك أيها الموصلى وخذ بيد الفارسى وتعالوا للعشاء ..

ثم أكلوا وناموا .. رقد الثلاثة على حشية من القش وطرحوا عليهم الغطاءين اللذين كانا واحدا ملفوفا ..

وفى الصباح أحس الموصلى أن ابنه هناك بانتظاره فى دكانه الذى يبيع فيه . فقبل العابد والفارسى ورحل موقنا بأن نورا جديدا لابد أن يكتسح هذه الظلمات .

★ ★ ★

٤

وبعد بضعة شهور قال الفارسى للعابد :

ـ وداعا يا أبـى ، لقـد اشـتريت بقـرة وعـدة رءوس مـن الضـأن وسأعيش وحدى فى كوخ على مقربة منك ، لأخلى مكانى لتلميذ جديد . سأرعى وأحلب اللبن وأجـز الصـوف وأغزلـه وأنسـجه .. علمتنى كيف أسعى إلى اللّه ، لكن .. إننى .. آه ..

رد العابد فى ذبول :

ـ سأقول ما تريـد أن تقـول : إنـك ستشـعر بـالحنين ولـو أنـك ستكون قريبا منى (وتبسم) لا تحـزن . فأعظم أنـواع الحنين هـو ما يخلقه القرب . ومن ذلك حب اللّه ، آه .. ها أنت يا فارسى قـد تركت أهـلك منـذ سنين فكيف حـال حنينـك إلى من بعـدت عنهم ؟

وعندئذ أطرق الشاب . كان الحنـين إليهـم صـدى يـتراجع مثـل همهمة الهرابذة فى معـابد النـار لكـن حنينـه اليـوم شـديد الوقـع ..

نقرات على شغاف القلب في انتظار مصدر النور وأصل الحقيقة وما لقاء هذا العابد سوى إرهاص لما يراد .

رد الفارسى وقد رفع رأسه وصوته :

- إننى يا أبى أشعر وكأننى والد لشاب مات . وأنا الوالد والشاب في وقت واحد . كبرت وخرج منى إنسان جديد بعد ما مات فيّ إنسان . كما تولد الخطوة من الخطوة فتحيى الثانية وتنتهى الأولى . والسير إلى الأمام يا أبى .. إلى منبع يشتاق قلبى لرشاشه . شربة واحدة منه تطفئ الظمأ إلى الأبد .

همهم العابد وكأنه يخاطب شخصا بعيدا :

- ستراه ..

واستطرد الفارسى :

- ها نحن أولاء في كل صقع ننتظر شيئا . وإن كانت الأم تعرف معنى مناغاة ابنها الرضيع وتستجيب ، فالله أحرى أن يعرف مناغاة قلوبنا ..

- صدقت ..

- وداعا يا أبى ..

وأخذه الشاب بين حضنه . وقبل جبينه ولحيته ، ثم بكى وانصرف .

ومنذ هذه الليلة وهو يستقل بحياته يرعى بالنهار ويغزل بالليل وينسج ويبيع ويشترى ما يحتاج . ويتردد على العابد كل مساء فيقوم بحاجاته قبل أن يعود إلى بيته ويستزيد من المعرفة . يحس يوما بعد يوم ــ ولو أنه مقيم فى عمورية ــ أنه يسافر . إلى أين ؟ ذلك ما يحسه قلبه ولكنه لا يستطيع ترجمته .

وفى إحدى الليالى دخل الفارسى على الشيخ فألفاه فى فراشه والليل مخيم والمصباح لم يوقد . فعجب الشاب لما حدث لكنه عرف أن الرجل قد أتعبته السنون . أشعل النور وجلس تحت قدميه على فراش القش .

جاءت من العابد ابتسامة وانية . وقال للفارسى :

ــ أما آن لك أن ترحل ؟

فرد فى عجب :

ــ إلى أين يا أبى ؟

ــ إنك لم تصل بعد . لن أخاف عليك من أشواقك ، فنارها نور . ستبيت فى الكهوف وتقيد أطرافك وتبقى روحك طليقة (وحملق فيه) لهذا خلقت يا فارسى .

تحسس الفارسى قدمى العابد ، وسأل متوسلا :

ــ ألقيت الخوف فى قلبى ..

– لا .. لا تخف فقد جاء الأوان وتناقلت الركبان ما عرفه الأحبار وأنكروه .. هيه .. أيها الفارسى . إن نهايتى قد قربت .

– ماذا أقول يا أبى .. ليت نفسا ردية تفدى نفسا زكية .. إذن فدتك نفسى .

تبسم العابد وقال :

– ستطفئ ظمأك فلا تخف يا فارسى .. عيناك تسألان إلى أين ستذهب بعدى وإن استكبرت أمر موتى ، لكنى يا بنى لا أعرف أحدا على مثل ما كنا عليه . آمرك أن تأتيه ولكن .. اسمع جيدا .. قد أظلك زمان نبى يبعث بدين إبراهيم حنيفا يهاجر إلى أرض ذات نخل بين حرتين ، فإن استطعت أن تذهب إليه فافعل .

كاد الفارسى يصرخ : « آه ماذا تقول يا أبى ؟ » .. وأطرق حاملا ذقنه فوق كفيه وهو جالس على حشية القش عند أقدام العابد . وعندئذ شعر بشىء جديد . شعر بأن معالم هذه الأرض غريبة لا تطاق . وبلمسة من الحنين إلى الذى حدثه الشيخ عنه . وأخذ يتصور النخل والحرتين . وتذكر توا ما قاله العابد ذات يوم حين كلمه عن الحقيقة : « لم تجدها فى بريق الذهب ولكن ربما ستجدها فوق رأس نخلة وأنت تحصد أو تحت أقدامها وأنت تزرع .. » .

ثم أخذ يقول في نفسه : « من ذا الذى يدلنى على هذه الأرض ؟ لم تعد أرض اللوز والأعناب وطنا لروحى .. آه يا أبى .. ليتنى أستطيع حملك طوال الرحلة القادمة وأنت فوق رأسى لتهدينى إلى هذه الأرض . لكن .. ما دامت خطواتى وراء أشواقى فإننى لن أضل » .

وتنهد . وعندئذ سمع صوت الشيخ فجأة يقول له بقوة جديدة :

ـ يا فارسى ، خذ المصباح وقم معى فإننى أشعر أننى الآن أحسن حالا ، تعال إلى حجرة المنسج .

وجلسا هناك وأخذا يغزلان معا . وعادت إلى الشيخ حيوية طارئة كذلك الصحو الذى تفجؤنا به السماء بعد الغيوم . وأخذ يتحدث . وأمر الشاب أن يصنع له شرابا دافئا ووضع عليه بعض الأعشاب وأخذ يشرب . ثم قال للفارسى وهو يبتسم :

ـ كأنك غريب .. أليس كذلك ؟

فأطرق الشاب .. واستطرد العابد :

ـ أنا أعرف سرعة القلب حين يركض ، كحصان عربى . يركض إلى هناك (وأشار بعيدا) وهو هنا (وأشار إلى صدره) مخلوق غريب هذا القلب يا بنى .. فيه كل سر .. هو أبو الجوارح .. فيه العين والأذن والأكف والأقدام (وضحك) يرى ويسمع

ويجرى .. هيه .. أليس قلبك الآن فى ركض ؟ لا تخف يا فارسى . ستلقى هذا النبى .. ستلقاه بإذن الله .

قال الفارسى فى سهوم وتبتل وخضوع :

ــ دعنى يا أبى ، كفانى ما أحس الآن فلا تشعل نار شوقى .

رد الأب وكأنه لم يسمع شيئا :

ــ له آيات لا تخفى .. فهل تحب أن تعرفها ؟ ثم همس إليه وسكت . لكن .. بقيت على شفتيه ومضات نور .. كآيات لا تخفى للحادث الأعظم .

همهم الفارسى :

ــ ماذا قلت يا أبى ؟ إن رأيته عرفته ؟ إن رأيته عرفته ؟. كيف أعرف ما هو فوق طاقة البشر ؟

ــ آه .. (وهكذا تأوه العابد فى شبه احتجاج) لا .. لن يفتن الناس فى أمره كما فتن النصارى .. بشر يوحى إليه بشر مكمل .. سيعرفه قلبك يوم تلقاه يا فارسى ..

وعندئذ تلعثم الفارسى بسؤال هم أن يلقيه لكنه ما لبث أن عدل عنه . أحس الشيخ به فهتف يسأله :

ــ قل ولا تخف ..

ــ لست أريد شيئا .

ــ اسألنى قبل أن تسأل عنى فلا تلقانى ..



وأمر الشاب أن يصنع له شرابا دافئا

ـ أوجعت قلبي .. كنت أريد أن اقول لسيدى هل تتمنى أن تلقى هذا النبى ؟

وعندئذ استنار وجه الشيخ وترك المنسج واعتمد على ذراعه وهو متكئ على خشبة وقال له :

ـ لقد لقيته فعلا بإيمانى مقدما بظهوره . وعبدت اللّه الذى سيدعو إليه . لكن بقية أيامى وقواى لن تمهلنى حتى ألقاه .. أما أنت يا فارسى ـ إن كنت موقنا أنى أسديت إليك شيئا ـ فاذكرنى عندما تتملى عينك طلعة أكمل إنسان يحلم برؤيتها طائفة من البشر قبل ظهوره . وسيحلم برؤيتها طائفة أعظم تراه فى كل حق ونور .

وعندئذ أكب الفارسى على يدى الشيخ مقبلا دامعا ، غير أنه ما لبث أن أخذ يده ليعتمد عليها وعاد به إلى غرفته حيث سينام على حشية القش ، وأمره بأن ينصرف ويعود إليه فى الصباح .

وقبل مشرق الشمس كان الفارسى فى الطريق إلى العابد ، ورذاذ من المطر يبلل الأرض ، وعلى رأس الفارسى غطاء من الصوف نسجه بنفسه وفى يده وعاء من الحليب .. من بقرته .. حمله إلى السيد العابد .

كان الفارسى وهو فى الطريق يتأمل معالم المكان فلم يجد شيئا يعرفه . خيل إليه أن كل معلم قد غير موضعه . فالكنيسة الصغيرة القديمة لم تعد فوق التل كما عرفها أول يوم منذ سنين يوم جاء إلى

هنا . والكهف الكبير لم يعد هناك بل فى مكانه انبثقت أشجار . وهذه الأكواخ كأنها نبتت فجأة على السفوح . وليس هناك مرعى أخضر . وكأن البقر والغنم ذئاب تبحث عن فرائس . «ما هذا ؟» هكذا سأل الفارسي نفسه « هذه الأرض ليست وطن القلب منذ اليوم .. لقد أصبحت غريبا » .

وواصل السير ، ورذاذ المطر يبلل غطاء إناء اللبن حتى إذا ما قارب باب العابد رآه مفتوحا ملتصقا تماما بالجدار كأنه يقول للناس : ادخلوا ..

ودخل . أولا إلى حجرة منامه ، فلما لم يجده فيها تفاءل . وكانت هناك نار خابية وعلى الجمر وعاء صغير تفوح منه رائحة أعشاب غريبة تغلى مع الماء — والغطاء منكوش مما يدل على أن صاحبه رمى به .

ونادى . لم يجبه صوت . فوضع وعاء الحليب على النار إلى جنب وعاء الأعشاب ورجح أن يكون العابد فى المزرعة ما دام أنه نادى فلم يرد عليه . فاخترق الدهليز فى نصف وعى ، ولكنه عندما نفذ منه إلى الباب المؤدى إلى المزرعة رأى المطر يشتد . فنادى ، ثم سار حثيثا ، وذهب إلى البئر فإذا الدلو مقلوبة . وكل شىء يدل على التوقف . ونادى .. وتفقد المكان .. ثم ألقى نظرة على هذه البقعة الخضراء الصغيرة التى حبا فيها قلبه حتى وصل إلى اللّه . ثم

نظر إلى السماء الرمادية التى تبشر بشىء .. أى شىء .. ثم هرع مسرعا إلى الداخل .. مر بحجرة نومه فإذا باللبن يفور ويراق على الجمر فرفعه ووضعه على الأرض ثم رتب الفراش . لم يكن هذا وقته لكنه كان قلقا مربوكا . ودلف إلى الدهليز الآخر الذى يؤدى إلى حجرة المنسج ، وعند الباب رأى ما جعله يقف متجمدا ، رأى الأب الذى أحبه جالسا إلى المنسج منكبا عليه جبهته على النسيج وفى يده صوف وفمه مقفل بإصرار وعوده منطو فى طمأنينة وقد فارق الحياة .

صرخ الفارسى :

ــ أبى .. مت وأنت تعبد .. مت وأنت تعمل .. مت وأنت مؤمن بالنبى الجديد .. أبى مت أنت وليس دهقان فارس .. » .

ومال يقبله ويبلل وجهه بالدموع ، ثم حمله إلى فراشه .

★ ★ ★

وبعد هذا الحادث الروحى الفذ استطال الليل وشحب النهار فى نظر الفارسى .. وكانت قدماه تغلبانه فى الذهاب إلى هناك . إلى حيث كان يسكن العابد ، ثم ما لبث أن تراخى قليلا . ثم انقطع تماما عندما ذهب إلى المكان فإذا به قد حول إلى معصرة للنبيذ وزحف الإهمال على المزرعة وانكسرت سوارى عرائش العنب فانكبت على الأرض . وعندئذ أحس الفارسى أن هذا نداء له

بالرحيل إلى البقعة التى ترك فيها بقرته وغنمه حيث كان يرعى ، وجلس على الأرض فى يمينه عصا يضرب بها حجرا أمامه .. حركة لا إرادة فيها . كأنها تعبير عن الهموم .

سمع الفارسى غناء انتفض له . وذكره بحادث قديم . حادث كان عارضا لكنه كان فى حقيقة أمره عميق الأثر . سمع حداء عربيا بصوت رخيم فكأنما بعث من خلال نبراته رفيق سفره الأول سهيل العربى فضرب الحجر بعصاه . فانكسرت العصا .. نظر إلى نصفها الذى سقط وألقى بسمعه إلى الغناء . حدثه قلبه أن شيئا ما سيقع . لكن الركب لن يمر بجواره . فجرى هو حيث وقف عند الطريق الواسع . وأخذ الغناء ينصب فى أذنيه ففاحت منه رائحة الجزيرة . ونظر إلى قدميه الكبيرتين فى نعله الخشن فخيل إليه أنهما قدما طفل يحن إلى ملعبه هناك : « آه .. أرض ذات نخل بين حرتين .. آه » .

وسكت فجأة صوت الحادى يقول :

يا نخل تحت ظلك الحبيب
يا ليت لى فى الظل من نصيب
فديت من إذا رأيت طلعته
رأيت بدر الليل يحكى صورته

يا ليت لى فى الظـل من نصيب
يا نخـل تحـت ظـلك الحبـيب

وسكت الغناء وبدا سواد القافلة ، ووقف الفارسـى فـى الطريـق وقـد مـد ذراعيـه إلى جانبيـه كـل فـى ناحيـة ليستوقف الركـب . وهمهم المسافرون وخافوا . وسرت بينهـم حركـة استعداد كتلـك التى يأتيها الجنود بعد الإشارة الأولى . لكنهم مـا لبثوا أن رأوا مـن صباحة وجهـه ونقـاء نظرتـه مـا جعلهـم يؤمنـون بطهـارة قصـده . الشوق فى عينيـه والظمـأ على شفتيه والتضحيـة أقـرب الأفعـال إلى قلبه :

ــ أيها الحادى .. لقد أثرت أشواقى .. قفوا باللّـه عليكـم وثقـوا أننى عبد لكم .

فجاءته أصوات مختلطة :

ــ ماذا تريد أيها الرجل ؟

ــ إن لكم سحنة قوم أحبهم .

فجاءه صوت غليظ :

ــ ولكنك لست منهم .

فرد الفارسى بنبرة عاتبة :

ــ ظلمتنى .. أين وجهتكم باللّه عليكم ؟

رد صاحب الصوت الأجش وكان رجلا طويل اللحية يجرى سواد شعراتها فى بياضها جنبا لجنب حتى اكتست لونا أزرق :

ـ وجهتنا جزيرة العرب ، فماذا تريد منا ؟

أمسك الفارسى بزمام ناقته وتشبث به فلو أن قوة الدنيا جذبته من بين أصابعه لمات دون ذلك . ورفع الفارسى رأسه إلى الزجل وقال بصوت سمعه الجميع :

ـ إننى أقيم هنا ، وليس هذا وطنى يا سادتى .. أنا من بلاد فارس ، لكن وجهتى جزيرة العرب .. وأنا أملك أشياء تافهة وكثيرة ، فهذه الأغنام وتلك البقر لى فخذوا كل هذا . سأسوقها أمامكم واقتسموها واتركونى فى الجزيرة .. فى أى مكان عامر وبعد ذلك جزاؤكم على الله .

وما كاد الفارسى ينتهى من كلامه حتى سمع ذا اللحية يأمر بأن تناخ الجمال لتستريح حتى يعود إليهم هذا الرجل بما وعدهم به . وبعد أن أولاهم ظهره ورأوا صلابة أجلاده وعظمة بنائه خافوا أن يكون له أتباع من شاكلته ، فما لبثوا أن شدوا رحالهم وساروا . وكان الفارسى قد حمل أمتعته التى لا تزيد على الغطاء والرداء وساق أمامه ماشيته متجها إلى حيث استراح الركب لكنه وجد المكان خاليا إلا من آثار الرجال والجمال . فتلفت فى الأفق وقلبه يبكى . فما لبث أن رأى ظلالهم على بعد فأخذ يضرب ماشيته

بقسوة لم يعهدها فى نفسه سائقا نحو الركب وهو يصيح بهم أن انتظروا وكانوا يتلفتون . فلما رأوا صدق قوله انتظروه على الطريق حتى وصل إليهم . فأردفه واحد منهم خلفه ثم استأنف الركب مسيره .

وعند أقرب بلد باعوا أملاك الفارسى واقتسموا ثمنها ، وأعطوه نصيب واحد . فشعر وهو يأخذ هذه الدراهم ببهجة من وهبه اللّه العافية ، فقد كان موقنا بأن الطريق لن يطول وأنهم سيحسنون إليه مثلما أحسن .

وكان السفر فى أوله ممتعا ، ساعة كانت القافلة تسير ومعها مال الفارسى . وكان الحادى لا يكف عن الغناء وبين الجماعة هرج ومرج يوحى بالسعادة . وبعد أن قسموا الغنائم وأخذوا ينفقون منها فى كل بلد يمرون به ونفد كل ما أخذوا بدأ الموقف يتغير . وأحس الفارسى أنه غير مرغوب فيه وأنه قد سقط فى فخ لكنه لجأ إلى الصبر والحيلة .

وكان أول ما لقيه أن قال له الرجل الذى أردفه وراءه :

— إن راحلتى قد تعبت . إنك أثقل من عشرة رجال . أعطنى سيفك هذا وإلا فترجل .. اجر وراءنا إن شئت ..

شعر الفارسى بأن كلمته عن السيف ليست فى حقيقة أمرها سوى سيف أغمد فى قلبه . ولم يكن فى سيفه جوهر فقد كان

السفر الطويل سببا فى أنه باعه قطعة قطعة وأصبح مقبضه يحمل آثار الجواهر . لكنه كان فى حقيقة أمره — كسلاح — يعادل روح الفارسى نفسها فرد على صاحبه :

— دعك من السيف .. لكن أنا مستعد أن أعطيك إحدى بردتى هاتين وتكفينى واحدة .

رد رئيس الركب بصوته الغليظ قائلا :

— أنت رجل مغرور . أما يكفى أننا احتملناك كل هذه المدة . من أرض الروم إلى الشام وها نحن أولاء قدمنا وادى القرى ؟.

قال الفارسى فى نفسه : « ليتنى أستطيع أن أبارزك » ثم هتف به : « أهذا هو وادى القرى .. إنى أرى فيه نخلا .. إنه واد مبارك .. ».

رد رئيس الركب فى تهكم خفى :

— لقد أصبت عين الحقيقة .. لكن .. اعلم أننا قادمون بعد قليل على قبيلة من اليهود تقيم فى هذا الوادى وأبى يرحمه اللّه كان قد أصهر فيهم . أى أنهم أخوالى .

وعندئذ ترامت إلى أذن الشاب ضحكات منتصرة من مؤخرة الركب أحس بعدها أن أشياء ضده قد دبرت بليل ، لكنه تحسس سيفه . فنظر إليه اليهودى وقال له :

ـ إنك لكى تصل إلى هنا فقد كان لابد أن تدفع الثمن يا بنى .. لكن نسينا أن نسألك ما دينك ؟

ـ أعبد اللّه ..

ضحك الرجل ضحكة تقع على الأذن مثل الصفعة :

ـ وأنا أعبد اللّه .. أنا أسألك ما دينك ؟

ـ لو كنت تعبد اللّه حقا ما فعلت بى هذا أنت وصحبك . إن الذى يعبد اللّه حقا يحبه أو يخافه أو يرجوه فيمن خلق . فهل أنت تحب أو تخاف أو ترجو أيها السيد ؟ ماذا تريد أن أدفع لك ؟ لم يبق معى شىء يباع سوى سيفى وثيابى وقد كنت طوال السفر أخدم الركب رجالا وجمالا ومستعدا للدفاع عن مصيره .

ـ أوه .. أنت متحذلق يا بنى . أما سألتك ما دينك ؟

ـ دين إبراهيم الحنيف ..

عم صمت .. وسادت همهمة : « آه .. آه آه .. من ؟؟ » .

وقال الفارسى :

ـ قل لى يا عماه .. بماذا تخيفنى ؟.

حملق فيه :

ـ ألست خائفا يا فارسى ؟؟

ــ لقــد تحــررت من كل ما يورث الخوف يا رجل .. وها أنت ذا ترى أنني مستعد أن أتخلى عن ردائي وشملتي أمـا سيفي فـلا .. ثم .. بقيت (النفس) .. وليس لها إلا مالك واحد هل تعرفه ؟

رد قائلا :

ــ نعم أعرفه .. وهو أنا ..

حملق الشاب بعينين مذهولتين وهم أن يجرد سيفه فلمعت حولـه سيوف تبلغ المائة ، فرجع لكنه أيقن أن شـيئا مـا سـيحدث . وقـال الرجل وهو يزبد :

ــ أتجـرد سيفك فـي وجوهنـا أيهـا الجبـان .. نحـن قـادرون أن نتركك هنا وحدك وننصـرف لتكـون فريسة للسباع قبـل مدخـل الليل . لكن ديننا يمنعنا من ذلك .

ــ وهل يبيح لك دينك أن تنقض العهد وتأخذ مـن مسـافر كـل شيء حتى ثيابه ؟

ــ لا تخف . سندع لك الثياب ولكنني الآن أتـرك الخيـار لـك ، فإما أن تنزل من علـى الراحـلة لتلقـى المصـير المعـروف هنـا وحدك ، وإما أن تعطينا ثمن (نفسك) .. ادفع لنفسك الفديـة مـن نفسك لنقسمها بيننا . هل تفهم ؟

همس وكأنه في حلم :

ــ فدية .. وهل أنا أسير أيها الرجل ؟

– لا .. بل أنت رقيق . سنبيعك يا فارسى فى هذه القبيلة ، وهأنتذا فى أرض أعجبك نخيلها كما رأينا . فهل تستطيع أن تفعل شيئا ؟

انبعث من جديد صوت الحادى حزينا وكأنه هو وحده الذى لم يشارك فى هذا الإثم :

يا نخل تحت ظلك الحبيب
يا ليت لى فى الظل من نصيب
.. ..
.. ..

وكان الفارسى يقول فى نفسه وهو متمالك كل حواسه ومعنوياته : « وماذا يضير ما دمت فى الطريق إليه . إن المملوك لا يملك مرتين فى وقت واحد ونفسى ملك الله . فهى فى طلاقة الأفق وحرية النسيم .. وماذا يفعلون بجسم رقيق ؟ لست أرى فى هذا تناقضا يا ربى .. آه أين أنت يا عابد (عمورية) لتقول لى رأيك ؟ لست أرى تناقضا فى أن أخدم عبدا وأعبد إلها ما دمت يا ربى قد كتبت على أن « أبكى فى الطريق إليك » .

كان الصمت مخيما على المجموع ، وقال ذو اللحية مستأنفا حديثه :

– ما رأيك يا فارسى ؟

ـ الرقيق لا رأى له .

ـ أصبت الحقيقة .. لكن لم تقل لى كيف تعبد اللّه على ملة إبراهيم حنيفا .

ـ لست من المشركين .

ـ ولماذ لم تكن يهوديا ولا نصرانيا ؟

ـ أحباركم يعلمون معنى ما أقول فإن كنت تعرف أحدهم فاسأله .

ـ فتى متحذلق .. ها نحن أولاء قد وصلنا ..

ثم رفع ذو اللحية عقيرته وأخذ ينادى :

ـ يا أبا يعقوب .. يا أم يعقوب .. يا يعقوب الغالى .. ها نحن أولاء قد عدنا .

وارتفع نباح الكلاب عندما نادى الأسماء الثلاثة ، وسعت إليه امرأة هى أم يعقوب ورحبت به ، عرف الفارسى عندما رأى أنفها أنها يهودية حقا .

وأناخت القافلة ، واجتمع الرجال حول المرأة ووقف الفارسى بين الجميع وقد فرعهم بطوله نامى الشعر واللحية فى غير نظام . أشعث أغبر . فى عينيه معرفة ومعركة ويقين . وأخذته عين المرأة فأحست بالخوف . وسألت ذا اللحية عمن يكون هذا الشاب ؟ فأجابها بأنه رقيق معروض للبيع . وأنه قد اختار زوجها أبا يعقوب ليكون شاريا له . وفى فرح وخوف هرولت راجعة ثم عادت به ..

بزوجها قميء مدبب الـرأس من أعـلى . كأن رأسه بيضة مقلوبة .
وكان الفارسى ينظر إلى الصحراء والجبال من حوله فلا يعرف شيئا إلا أنها أرض الله .. وجعل يرقب المساومة بين اليهوديين على الثمن وهو يبتسم إذ هـو موقـن بـأنهم يبيعـون مـا لا يملكـون ، وأن هـذه النفـس التـى يتسـاومون فيهـا سيسـتردها صاحبهـا بـلا ريـب .. سيستردها الله ..

ولم يلبثوا طويلا حتى تمت الصفقة وتركوه وانصرفوا .

وعندما كان الفارسى يتبع أبا يعقوب إلى داره كان غناء الحـادى يأتى من الجنوب وانيا متهافتا أكثر حزنا واكتئابا ..

يا نخـــل تحـــت ظـلك الحبـيب

يا ليت لى فى القرب من نصيب

.. ..

.. ..

عدة منازل صغيرة متفرقة قائمة على السفح لجماعة من سيدهم أبو يعقوب ، يشـربون ويسـقون مـن بئر شـحيحة المـاء لكـن قـوام معيشتهم فى الحقيقة هى الرحلات إلى الهند أو اليمن لجلب البضـائع أو السيوف والاتجار فيها .

ولما اشترى أبو يعقوب هذا الرجل الفارسى وانصرفت القافلة بدأ يشعر بالندم . وأحس ـــ ولسـبب لا يمكـن إدراك سره ـــ إنـه إنمـا اشترى لنفسه سـيدا . فلـم تكـن نظـرات هـذا الرقيـق الـذى أضنـاه السفر والسهر والغدر والجوع كسيرة ولا ذليلة . بل كـان يـرى ـــ كأنه أحد الأحبار ــ فى أعماق عينيه السـوداوين القاسـيتين أسـرارا روتها التوراة عن تبدل الدنيا وإشراق النور الجديد .



بل كان يرى فى أعماق عينيه السوداوين الفارسيتين أسرارا
روتهـا التـوراة عن تبـدل الدنيـا وإشراق النـور الجـديد

وأراه مكانه . حيث يجب أن يقيم ، بيت مستقل . إن وقف كان السقف يلمس رأسه وإن تمدد كان الجدار يلمس قدميه ، وعندئذ قال الفارسى : ماذا يريد رقيق أكثر من ذلك (وتبسم) واختلى أبو يعقوب بزوجته فى الليل وبثها إحساسه ..

ـ ماذا ترين فى هذا الرجل يا امرأة ؟

ـ ثمنه بخس . لو شئت بعناه بضعف ما اشتريناه به .

فلكمها فى صدرها فتأوهت وقال :

ـ ليس هذا قصدى . ماذا ترين فى روحه لا بنائه .. ماذا يلوح فى عينيه ؟

ـ أخاف منهما ؟

ـ ذلك هو شعورى . سأطفئ فيهما الشعلة منذ غد فلا نعود نخاف ..

همست خائفة :

ـ وماذا ستعمل ؟

ـ سأكلفه أشد عمل وأطعمه أقل زاد وأجنى من وراء كل هـذا ربحا كثيرا ..

ـ أخاف عليك . ولكن افعل ما بدا لك .

وعند الصباح وقف أبو يعقوب عند البـئر وصـار يصـرخ مناديـا قومه والفارسى واقف إلى جواره .

فلما التفوا حوله راعهم منظر الرجل ، ولما علموا أنـه رقيـق أبـى يعقوب هنأوه وباركوه ثم سألوه فيم جمعتنا ؟ فقال لهم :

ـ هذه البـئر لا يكـاد ماؤهـا يقـوم بحاجاتنـا مـن زرع وسـقى ، وكثيرا ما يغيض ماؤها ، وقد عزمت بواسطة هذا الشـاب أن أعيـد حفرها وأن أبنى جوانبهـا بالحجـارة ، وهـذا يسـتلزم نفقـات طائلـة فهلا اتفقتم معى على أن أقوم بها وحدى نظير أن يدفع كـل منكـم ألف درهم ؟

وتجادلوا وتطاحنوا واختلفوا ثم اتفقوا . ومنذ هذه اللحظة عرف الرقيق عمله اليومى : وبعد قليل قال لليهودى :

ـ يا أبا يعقوب ..

ـ قل يا مولاى .. فأنت رقيقى ..

قال الفارسى بهدوء لا يقاوم .. هدوء كأنه ضجيج العواطف .

ـ إن لى سيفا دفنته فى مكان أعرفه . أستطيع أن أقـاتل بـه مائـة رجل وأنا وحيد وأموت دون ذلك سعيدا يا أبا يعقوب . ولن أقول

لك من كان أبى ، وماذا كان يملك فلم تعد هذه الأشياء مناط فخر فى ضميرى ، ولكنى أقول لك يا أبا يعقوب إن لى مولى واحدا وهو الذى من أجله بخلت بنفسى أن أريق دمها بين رجل مثل صاحبك هذا الذى باعنى لك ، فهو قد باعنى وستبيعنى أنت فى يوم ما . وأنا أحتمل كل هذا بصبر سعيد لأننى بكل ذلك أشعر أنى فى الطريق إلى من أرجو لقاءه . إن لك من يدى هاتين عملا كثيرا ولك من ضميرى كل وفاء .. لك منى عهد لا أخونه لأن مثلنا لا يخونون العهود ، فأنا رقيق طليق يا أبا يعقوب .

ذُعر اليهودى ونادى أم يعقوب وانتحى بها وقص عليها ما حدث فلكمته فى صدره بدورها وحذرته من هذا الشاب قائلة له :

ـ إنه مثل عاصفة رعدية .. اختبئ واتركها تروى الأرض ولا تخرج إليها حتى لا يصعقك برقها .

ومنذ هذه اللحظة والفارسى يحمل فأسا ويصعد الجبل لكى يكسر حجارة يبنى بها جوانب البئر . وعندما ضرب بذراعيه القويتين رأس الصخرة تطاير الشرر منها . فتبسم . وأحس بسعادة لا يدرك مغزاها . كأنما أشعلت الفأس نورا كشف له معالم لم يرها من قبل .. على حوافيها الجنة . وبدأ يعمل حتى إذا ما فرغ بعد شهور أخذ يرمى بالحجارة من فوق الجبل ثم نقلها إلى البئر . وأخذ

يحفر ويبنى ويساعده فى ذلك بعض الغلمان وكانوا رقيقا ليهودى آخر .

وجنى الحى من ذلك خيرات غنوا لها وسهروا ورقصوا وزاد مال أبى يعقوب بعمل رقيقه الجديد .

لكن حدث بعد عام واحد من إقامة الفارسى بين هذا الحى من اليهود أن عزم أبو يعقوب على السفر إلى الهند ، لصفقة تجارية . فيها لؤلؤ وسيوف وتوابل . فسهر يفكر ، إنه إن استصحب معه رقيقه هذا فإنه لن يأمن ما يحدث فى الطريق فربما فر أو ربما غدر به ، إن عينيه القويتين تربطان عدوه كأنما هو مكبل بالأغلال . ثم قال اليهودى فى نفسه : وإن تركته فاللّه يعلم ماذا سيحدث فى غيابى .. ولكن لماذا لا أبيعه لبعض أهل الحى ؟

وفى المساء التالى سعى هو بنفسه إلى أغنى رجل فيهم ، فلما دخل عليه وأخبره خبر سفره وأنه ينوى أن يبيع هذا الرجل الرقيق وأنه اختاره هو ليكون شاريا له . تقلب اليهودى الآخر فى جلسته وقال له بعد أن قبض على كف بكف :

ـ هل تريد الحقيقة يا أبا يعقوب ؟. إن كنت تنشدها فمن حقك أن تبيعنى أنا رقيقا له .. وليس العكس .. ليس مثل هذه الروح تستعبد . وليس يتغير جوهر المسك إن سميناه طينا . يا أبا يعقوب إنك فى قرارة نفسك تحس أنه سيدك .. لماذا تطرق ؟.

لماذ لا ترد ؟.. حمل الأحجار وحفر وبنى وسقى بقوة تمدها قوة لا تدرك .. أنت تخاف منه ولو عرضت بيعه على أهل الحى شركة لخافوا . هذا الرجل الصامت الذى يتطلع إلى السماء كلما وضع الفأس وكف عن العمل فى انتظار شىء .. فلا تسافر يا أبا يعقوب حتى تتخلص منه . فهو سيدك وليس رقيقك وإن شئت فاسأل ابنك عن إحساساته نحوه .

قال اليهودى :

ــ أنا مصدق كل ما تقول . لكنى لن أسافر حتى أقضى فيه برأى ..

ولم تمض أيام حتى مرت إحدى القوافل .. وهللوا وفرحوا عندما رأوا الماء ..

ونزل رجل من يهود بنى قريظة يسأل عن أبى يعقوب ، فلما رآه أبو يعقوب عانقه وظل يقبله فى كل موضع من وجهه لأنه رأى فيه الخلاص فهو يعرف أنه يملك أرضا ونخلا وغنما وإبلا وأنه سيد فى بنى قريظة ..؟

واختلى الرجلان ..

ــ أهلا أبا كعب .. وكيف حال شعبنا هناك ؟

ــ أهلا أبا يعقوب .. وكيف حال شعبنا هنا ؟

وجلسا يأكلان . وأخذ أبو كعب يقص على صاحبه قصة الرحلة وأن هذه آخر الرحلات فى هذا العام . وبينما هما يتحدثان إذ سمعا صوتا فخما عزيزا ينادى صاحب الدار :

ـ يا أبا يعقوب .. سأصنع لك منسجا كالذى رأيته فى بلاد الروم وأنسج لك صوف غنمك فتربح منه الكثير ..

تلفت الضيف مذهولا وسأل :

ـ من هذا الرجل ؟

غمزوه من كل جانب ثم صرفوا الفارسى لأمر ما . ثم قالوا إنه رقيق اشتريناه من إحدى القوافل . عض الضيف شفته ثم سبابته وقال لصاحب الدار :

ـ ما رأيت مثل هذا .. تبيعنى إياه ؟

تدلل أبو يعقوب وتأبى .. وضحكت أم يعقوب كأنها تستغرب الطلب ، لكن ما لبثوا أن عرجوا على الأمر أثناء الحديث ، وقبل رحيل القافلة كان أبو يعقوب قد قبض ثمنا لعبده خمسة آلاف من الدراهم .

★ ★ ★

نظر الفارسى إلى أهل الحى الذين التفوا حوله يسألونه وهو يمتطى ظهر ناقة : إلى أين الرحيل ـ نظر إليهم نظرة دامعة ليست على الأرض التى تركها ولكن حنينا إلى الأرض التى هو ذاهب إليها . وكانت البئر آخر ما وقعت عليه عيناه .

(الباحث عن الحقيقة)

وبدأت القافلة فى المسير واستتب لها الطريق وإذا بأحد الحداة يردد ما ردده الأول :

يا نخـل تحـت ظلك الحبيب
يا ليت لى فى الظل من نصيب
.. ..
.. ..

ابتلت لحية الفارسى بدمعة ، ومرجحته الناقة وهو ينظر إلى السماء . كان نورها شديد الرونق بالغ العمق . كان أكثر من نور سماوى ، كان نورا وعطرا ومتعة روح . وشىء من دموع الرجل يصل إلى فمه فيحس طعم الدمع فكأنما شرب شيئا نادرا وقال فى نفسه :

« يد تسلمنى إلى يد حتى أقبل يديك .. هذا يقينى .. أيها النبى الذى آمن به شيخ عمورية .. هل أنا فى الطريق إليك ؟. وادى القرى كأنه يحمل عطرك .. » .

ثم رفع صوته :

ـ أيها الحادى لماذا لا تغنى ؟.. الحبيب تحت النخل .. أيها الحادى قلها من جديد ..

★ ★ ★

٥

هتف دون أن يشعر والقافلة تدخل المدينة والنخل يهتز بريح لينة وعليه بقية مطر والأرض ذات الأحجار السوداء حولها تلمع به . هتف : « هذه واللّه أرضه وإنى ملاقيه هنا .. » .

و لم يكن الفارسى يدرى أن صوته فد ارتفع حتى سمعه أبو كعب فمال إليه يعنفه وسأل :

ــ عمن تتكلم ؟

قال وكأنه لم يخرج من نطاق فكرته :

ــ عن رجل أحلم بلقائه .

ــ صديق ؟

ــ ليتنى أسمو إلىٰ هذه المنزلة . إننى واحد من عدد لا يحصى يحلمون نفس الحلم .

ــ لست فاهما قصدك .. هل قابلته وأنت مسافر ثم افترق بكما الطريق ؟. آن لك أن تستريح يا فارسى ..

ــ سمع اللّه منك ..

– نحن قوم مجتهدون . نحن أهل زرع وحرث نقيم فلا نبرح .. هكذا بنو قريظة – وهم قومى – وهذا دأبهم ولذلك آن لك أن تقيم .

★ ★ ★

وأقام .. ينام فى بناية واسعة منعزلة عن الحى تكدست فيها الحبال وأدوات إصلاح النخيل ، وفى أحد أركانها بقية تمر فاسد . فاحت رائحته فملأت الهواء .

كان متعبا من العمل . وتمدد على فراش من السعف وعليه غطاء من الصوف خشن جدا وسراج شحيح النور يضىء المكان على قدر طاقته . والليل شديد البرد . وأخذ يفكر . لم يدر لماذا عادت به الأفكار إلى أول الطريق ؟ وتحسس الفراش وتذكر فراشه فى فارس ، وتلك المخاطر التى تعرض لها والطاقة الروحية التى ألقى بها شيخ عمورية ثم .. تذكر بما يشبه الرفق أباه وأمه وأخته بوران .

ولمع فى المكان منجل تحت النور الواهى ، واقتحمت المنظر بجملته لفة من الحبال المكومة بلا نظام .. وجرى أحد الجرذان نحو السقف .. وعينا الرجل ترقبان كل شىء وفى قلبه حنين ..

وسأل نفسه : « هل يتمنى أن يرى أحدا من أهله ؟ » ولم

يجد جوابا ، كأنما نادى فى مكان لا شىء فيه يردد حتى الصدى .

وأخذ يستعيد تفاصيل رحلته وهذا اليهودى الذى باعه لآخر .. وملامح شخصية السيد الجديد .. أبو كعب هذا .. إنه وقومه الذين يسكن الآن بين ظهرانيهم منذ بضعة شهور يمتازون بالجبن ، ليسوا أهل حرب ، همهم أن يزرعوا ويحصدوا ويبيعوا ويكنزوا . وأحس الفارسى أن أبا كعب رجل لين العريكة تمكن الإقامة عنده إلى أن يقضى اللّه أمرا كان مفعولا .

ونظر الفارسى إلى سيفه .. فأحس بشوق إليه . كان معلقا على مقربة بين كومة أدوات الزراعة فنهض وأتى به . ولذ له أن يجلوه فأخذ يفعل . وتلألأ السيف كأنه يحدثه عن ليلة حرر يديه ورجليه من حبال الكتان التى أوثقه بها أبوه الوثنى . فخيل للفارسى أن السيف قد حطم وثنا ، عندئذ أدناه من أنفه وشم رائحته . فاحت رائحة الصلب المعروفة وملأت خياشيمه ، فسأل نفسه : ماذا سيكون مصير هذا السيف ؟.. إنه وقد خلا الآن من الجواهر قابل لأن يحلى بجواهر جديدة يعلم اللّه ما نوعها ..

وقام فعلقه فتدلى نحو الحبال ، ورجع إلى مرقده وتمدد . ونظر إلى السقف وتنهد ، وقال فى نفسه : « إلى متى يا رب يطول الانتظار .. أنا لست وثنيا ولست الآن نصرانيا .. وهأنذا فى أرض

اليهود ولست يهوديا كما تعلم . كنت مع عابد أحببته فيك وأحببتك فيه ارتفع بمعرفته لك حدا كدت أراه فيه غير تابع لنبى لكنه سبح فى نورك . وشيخ عمورية الذى مات يا ربى هو المسئول أمامك عما ألت إليه . وأنا لست فريسة للشك . فأنا أرى فى عذاب كل لحظة مرت بى ورقة خضراء تتفتح على شجرة الحكمة .. حكمتك التى تخفى على الناس يا ربى . وأنا الآن فوق فراش من الخوص وتحت غطاء من الصوف . وليس يهمنى غطائى ولا فراشى بقدر ما يهمنى ما تبسطه لى أنت وما تسبله على .. فكل قطرة دم وكل شهقة نفس ملكك .. وأشواقى تقودنى وخطواتى تتبعها وأنا بانتظار النور » .

★ ★ ★

قال أبو كعب للفارسى بعد عامين من إقامته :

ـ أنت رجل قوى ، لكنك تبخل بقوتك على مولاك .

فلم يرد عليه ولكنه أشاح عنه بوجهه ونظر إلى السماء على حين استطرد اليهودى :

ـ أنت تذكر يا فارسى يوم كنا فى وادى القرى عند أبى يعقوب .. يوم دخلت عليه فى آخر أيامك عنده وقلت : إنك تود أن تعمل له منسجا وتنسج عليه صوف أغنامه . فلماذا لا تفعل هذا عندنا ؟

ـ لا بأس يا أبا كعب . سأفعل .

ولم تكن هذه الرغبة إلا استجابة لإلحاح فى استرجاع ذكريات خلت له فى عمورية كأنما كانت مع أمه وأبيه .. وأحس الرجل أنه محتاج لمثل هذا كثيرا .. لأن المنطقة يغطيها الجدب بمعانيه كلها . فلياليه التى يقضيها مؤرقا كمسافر يبيت فى انتظار دليل ـ من الممكن أن يقطعها .. وشعر أن هذه البقعة من الأرض ستكون ـ بحكم معرفة الله لحاجاتها ـ مهبط وحى ووطن نبى . وستكون هذه الرمال التى تنبسط حتى تلمس صفرتها زرقة السماء محجا لكل الأمم .

وبدأ أهل الحى من بنى قريظة يتحدثون عن منسج أبى كعب وعن العمل الذى يقوم به له رفيقه الفارسى . وبدأ الرجل يسهر وأخذ يحاكى فى عمله ما يفعله العرب فى نسج الخوص وما يفعله الفرس فى نسج المطارف .. يد تعمل وعقل يفكر . والزمن يجرى فى تشابه . غير أن الفارسى كان يرى كل يوم قنطرة لليوم الذى بعده . يعبرها فى حبور حتى يأتى اليوم الموعود .

والعمر يجرى .. وقف الفارسى فى مطلع الشهر على تل يهيب بالغنم أن تعود إلى حظائرها فرأى هلالا مولودا فتبسم وأخذ يحسب عمره . إنه هنا فى أرض يثرب منذ ثلاثة أعوام أو أكثر .. وها هو ذا يدلف نحو الثالثة والثلاثين .. وها هو ذا يكاد ينسى تاريخ ذاته

.. أهو حقيقة ذلك الطفل الذى ولد فى فراش الخز والديباج فى أرض فارس . وفرح بمقدمه الدهقان وأقيمت لميلاده الصّلوات فى بيت النار فى القرية ؟

وهز رأسه وهو ينظر إلى الهلال . وقطعان أغنام بنى قريظة تنحسر وتتجمع فى طريقها إلى حظائرها .. وناقة شديدة الحنين ترجع بصوت كأنه نداء حبيب . وهز رأسه .. : « فى كل عام يدفن الرجل منا ذاته فى ذاته . يدفن الأضعف لينبعث منه الأقوى أو يدفن الأقوى لينبعث منه الأضعف .. وليس هناك ما يربط الأول بالثانى سوى للتذكر .. نعم . صدقت يا شيخ عمورية .. » .

وسلم عليه فى الطريق أحد الرعاة . أحس وهو يشد على كفه أن رابطة ما تربط بينهما .. من تلك العلاقات التى ينشرها اللّه بين البشر فيجعل المغتربين يحسون بالتآخى . وكان قصير القامة ذكى القلب سريع الحديث . فى عينيه قلق وجمال يتناسبان مع صغر سنه ، وقال للفارسى وهما فى الطريق :

ـ أريد أن أتعلم منك يا عمى ..

رد الفارسى بتواضع :

ـ وماذا عندى لأعلمه لمثلك ؟

ـ لقد تحدث الناس عن أغطية الصوف التى تصنعها يداك .



أهو حقيقة ذلك الطفل الذى ولد فى
فراش الخز والديباج فى أرض فارس ؟

ــ وما اسمك أيها الشاب ؟

ــ اسمى حسان ، أنا سمى شاعر المدينة حسان بن ثابت .. هل سمعته يا عماه ؟ .

ــ ربما .. لا .

فتأوه الشاب . وحملت آهته مدى لذة الروح :

ــ إنه يقول شعرا فى النبى الجديد ..

هتف الفارسى واحتضن الشاب :

ــ ماذا تقول ؟ النبى الجديد ؟..

ثم هتف فى سره : « آه يا شيخ عمورية . ليتك معى وحملتك لألقاه . إنى أخاف أن أموت على منسجى قبل لقياه مثلما مت على منسجك فالعمر منحة .. » . ثم رفع صوته قائلا للشاب :

ــ زدنى حديثا عنه .

ــ اتركنى فقد بعدت عنا الغنم ، وسأعود إليك الليلة لأتعلم وأتحدث .

★ ★ ★

والسكينة تملأ المكان والقلب ، سمع الفارسى طرقة على بابه ، ورائحة الحبال والليل والتمر والصوف تفوح فى المكان . ودخل الشاب بادى السعادة .. واحتضنه الفارسى كأنه ابن له لقيه بعد فراقه . ولأول مرة منذ رحيله عن عمورية أحس بأواصر القربى . وجلس هو وحسان إلى المنسج . فى يدهما الخيوط وفى قلبهما الأمل . وقال الشاب دون مقدمات :

ـ تركتهم يتجمعون هناك . الأوس والخزرج وقد سماهم النبى بالأنصار .. التقوا به عدة مرات فى (العقبة) وأسلموا وعلمهم من دينه ما أسعدهم . و لم يعد بينهم حرب يا عمى .. وابن ثابت فى الطريق إليهم ، ليقول أشعاره فى الرسول الذى لا يزال فى مكة ..

ـ حدثنى عن الذين تبعوه ..

ضحك الشاب ضحكة من يستكثر على الصغير أن يخبر الكبير بشىء أو يعلمه إياه :

ـ أما رأيت ذات يوم جبلا تغطيه الشمس بأشعتها .. هل تفرق الشمس بين السفح والقمة ؟ إنها لا تفرق .. هذا هو دينه الجديد .

ثم أخذ يتلفت فى أنحاء المكان الذى يغطيه نور خافت حتى وقعت عيناه على شىء ما فوثب الشاب وقام وجاء به :

ـ الناس فى دينه سواسية مثل أسنان المشط .. لم يبق من لا يتبعه إلا من يخافون على عرش أو سلطان لا يستظل بظل اللّه . مثل ابن أبىّ بن سلول .

ثم أمسكا بالصوف وجعلا يعملان ليلة فى أرض العرب أعادت إلى الذهن ما كان هناك فى أرض الروم . ولكن الشاب كان متدفق الحديث . كان يحس بفرحة من ملك شيئا عظيما يزيد فى عظمته أن يحدث الناس عنه . كان قد ملأ جيبه تمرا وأخذ يأكل ويتكلم والفارسى منصت كأنه فى حلم :

ـ آه يا عماه .. لقد حفظت كثيرا من القرآن الذى أنزله اللّه عليه . جاءنا من مكة رجل يقرئنا إياه .. ثم قرأ : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون .... ﴾ .

وكانت عيناه تدمعان وصوته ينفذ من خيوط المنسج وعينا الفارسى على السيف المعلق . خيل إليه أنه يختال فى قتال وإن كان له غمد غليظ ، وتذكر يوم فقده وعاد إليه مع رفيق سفره فأيقن أن ذلك لأنه يريده اللّه . وأفاق الشاب بعد ما هوم برأسه كأنه نام ونظر إلى الفارسى فإذا به ساهم . عيناه تنظران إلى بعيد وفيهما عمق لا يدرك له مدى . وعندئذ ربت الشاب كتفه وهمس :

ـ عمى .. هل أنت نائم أو مفكر ؟..

همس الآخر :

ـ نبى ! ماذا تقول فى رجل آمن بمحمد قبل لقياه . وإن كان مولى من موالى اليهود يخدم أرضهم ويرعى ماشيتهم .. نبى ـ فلتسأت كل ليلة تحت جنح الظلام بحجة أننى أعلمك ولكن لتعلمنى ، لأحفظ منك ما حفظته من القرآن . سأشترى منك غاليا برخيص .. فلا تبخل بشيء على بربك .. .

فتح الشاب فمه وهو لا يكاد يصدق وهمس :

ـ هل أنت مسلم ؟

وطوقه بذراعيه وأخذ يقبله ثم قال بصوت خفيض :

ـ لكن ألا يشك بنى قريظة فى أمرى إذا ما استمر ترددى عليك ؟

ـ لا تخف ، سأضاعف جهدى لأقدم لأبى كعب من النسيج ضعف ما اعتاد أن يأخذ منى حتى يوقن أن هذا من عمل يديك . لن أنام ليلى لأغدق عليه من متاع الدنيا ما يريد . وهذا لكى تلقانى فليس فى قدرتى أن ألقى أحدا هناك ما دمت رقيقا . فهل تعاهدنى يا حسان ؟

ـ نفسى فداك .. فدى الحر الرقيق . إن قيدا من الحديد يكبل جبل (أحد) غير قادر فى نظرى أن يكبل نفسك العظيمة .

ــ نحن بانتظار شيء فعلينا ألا نحزن . آن لك أن تعود فإني أخاف عليك ..

ــ وداعا ..

وأقفل الفارسي وراءه باب حجرته ثم جلس إلى المنسج يردد في همس ما حفظه من القرآن ويهتف بين لحظة وأخرى : « وعندما أرى وجهه سيلقي قلبي عصا الترحال . أما عقلي فسيف على عتبة المعرفة . نعم . هكذا يا ربي يا منزل القرآن على أكمل إنسان .. هكذا حكمك .. سأغترف فيض الحكمة من بين يديه . وكان في قدرتك أن تجعل مولدي حيث ولد . لكنك شئت لي قبل أن ألقاه أن تطهر نفسي في نهر عاصف التدفق . نهر حياتي التي بدأت في مزرعة وانتهت إلى مزرعة .. وليس يكفي قلبي يا ربي أن أعبدك على دين محمد لكن أن تجعل مني أحد جنود الإسلام وأن تكرمني بمشقة جديدة أجعلها وسيلة إليك ، مشقة يثقل وزنها على وزن ما قد حملت في سبيل ناس من اليهود كانوا قنطرة بي إلى شاطئ الحكمة . فالعبرة بما نعبر إليه لا بما ندوس عليه .. إن أسباب دعائي لك ممدودة كحبل من الأرض إلى السماء لا أريد أن ينقطع حتى تقطع بيدك القادرة حبل أسري . أما إذا كان ذاك سبيلا لرضاك ونصرة لدينك فلا تقطعه . ولتكن هذه ورقة جديدة على شجرة حكمتك » .

لم يشعر الفارسى أن المصباح قـد تضـاءل مـن حولـه لأن نـور النهار كان قد تسلل من كل شـق وكـل خصـاص وفـرش حجرتـه المليئة بالصوف والحبال والتى يتدلى على أحد حوائطهـا سـيف مـن بلاد فارس .

وعندئذ فتح الباب ليستقبل السماء والرمال والنخيل وفى إحدى يديه منجل وفى اليد الأخرى طعام يكفيه يومه .

★ ★ ★

٦

أصبحت حياته منذ ذلك العام فى جلال اللحظات تنغمس فيها الروح فى ابتهال مقدس ، فلا تشعر بامتداد الزمن . وأحس أن حياته جديرة بأن يعيشها بل وأن يبخل بها على الموت .

ولأول مرة يذكر الموت بخوف . كم تتوق نفسه لمعرفة الصلاة الجديدة .. وما أشد ظمأه لأن يؤديها وراء النبى ..

وكان بنو قريظة فى خوف دائم . كانو لا يفترون عن ترميم حصونهم وتجديدها لأنهم يعلمون بما تكنه قلوبهم من عداوة للنبى العربى ولعلهم كانوا يطمعون أن يكون النبى الذى وعدت به التوراة منهم هم .

ورآهم الفارسى وهم يعملون فى حصونهم ما يعملون ودعوه إلى أن يفعل ، لكنه قال لهم : إنى لا أعرف فى هذا شيئا . ليس لى إلا الرعى والزرع . ثم هتف فى نفسه : « اللّه وحده هو الذى يعلم أننى ربما أكون من جنود يهدمون هذه فوق رؤوسكم » .

وانصرف إلى النخل .. صعد نخلة يجز جريدها وصاحب النخل جالس تحته . أمامه نار عليها وعاء فيه تمر ولبن . والسماء فى صفاء اللازورد . نظر إليها الفارسى ونسى نفسه .. وحملق فى أبى كعب أسفل فأحس أنه ضئيل .. قمىء جدا فى قماءة الجرذان التى تسكن معه الحجرة . ولاحت له من فوق النخلة منازل بنى قريظة وحصونها . ومن بعيد أيضا رأى الحجرة التى يسكنها . خيل إليه أن نفسا من أنفاسه لم يخالط هواءها قط . كوطن غريب . اتجه ببصره نحو الجنوب حيث تقع المدينة والطرق المؤدية إليها ..

وعاد فنظر إلى السماء . رأى طيورا تتضام وتتجمع كأنما سمعت دعاء طائر تحبه . وفى قلبه اليوم حبور . وأحس فوق ذلك بشىء مادى .. إن عينيه قادرتان أن تخترقا الحجب وكأنه يرى بلاد فارس من فوق النخلة ويرى ناسا داخلين إليها وهو بينهم .

وتبسم . وسمع هتاف أبى كعب ينادى به :

ـ يا فارسى .. لقد نام أحدهم على نخلة ذات يوم فسقط فدق عنقه .. هل تسمع ؟؟.

لم يرد عليه بل أخذ يعمل بالسكين فى أصول الجريد ولم يلبث إلا قليلا حتى رأى رجلا من اليهود يجرى نحو أبى كعب ، وأحس قلبه أن حادثا قد وقع فكف عن العمل ونظر أسفل النخلة . وكانا فى بادئ الأمر يتهامسان فلم يسمع ما يقولان لكن أبا كعب

اضطرب وتراجع حتى انكفأ وعاء طعامه على الأرض . ثم ارتفعت الأصوات . قال أبو كعب غاضبا وهو ينظر إلى اللبن المراق :

ـ أليس هذا فألا سيئا .. إنكم يا بنى قريظة من أشهر الجبناء . تصدقون كل شائعة وتجرون فى كل اتجاه .. من قال لك هذا يا رجل ؟

رفع الثانى عقيرته صائحا فيه :

ـ قاتل اللّه بنى قيلة ، إنهم ليتقاصفون عليه بقباء ، وقد قدم من مكة ، ويزعمون أنه نبى ..

أما أبو كعب فخر جالسا . وأما ابن عمه الذى كان يحدثه فولى يجرى كأنه يبحث عن ملاذ . أما الفارسى فقد أخذ يرتعد .. اصطكت أسنانه ونضح عرقه ، أما القلب فقد كان له لغته الفريدة ، كان فى استعداد وخوف ليس من ذلك الخوف الغريزى المعروف ولكن كان مزيجا من رهبة وإجلال وشوق يبلغ حد الظمأ . وبلغ به حد أنه كاد يرمي بنفسه من فوق النخلة ، ولكنه نزل سريعا كأنما نداء كل القلوب المحبة انصب فى أذنيه الآن ..

وارتاع أبو كعب حين داست أقدام الفارسى العارية على فضل ردائه وهو جالس ينظر بحسرة إلى اللبن المراق ويتدبر ما قاله اليهودى عن مقدم النبى .. نظر أبو كعب إلى مولاه نظرة رجل يتهم بالجنون رجلا آخر . فقد كانت عيناه الفارسيتان ـــ تحت

حاجبيه المقرونين — فى اتساع مخيف . وفى سوادهما رأى اليهودى شخصه . وكان الفارسى يلهث . يهتز صدره المفتوح اللابس قميصا من الشعر الأسود تحت قميصه الداكن . وفى يده سكين وعلى كتفه حبل . وفى ساقيه قدرة على الجرى بحيث تسابق الريح .

وبعد لحظات سأل اليهودى :

— هل جننت يا فارسى ؟ هل لدغتك عقرب ؟ .

همهم :

— ماذا .. كنتما تقولان ؟

لكزه اليهودى فى جنبه لكزة قوية أودعها كل مخاوفه وحقده فهو يعلم أن النبى القادم إلى المدينة « رحمة للعالمين » جاء ليمحو الذل والعوز والكبرياء والترف .. والفارسى أحد الذين سيعزهم دينه . وكان لا يزال واقفا بانتظار أبى كعب الذى ما لبث أن قال له :

— مالك ولهذا .. اذهب إلى عملك ..

فصعد النخلة من جديد . وأخذ يترنم بذلك الحداء الذى سمعه فى وادى القرى يوم غدره اليهودى الأول وباعه لهذا الجالس تحت النخل كأنهم يدفعون به من حيث لا يشعرون إلى طريق اللّه .. جعل يترنم :

يا نخـــل تحـــت ظـلك الحبيب

يا ليت لى فى الظـل من نصيب

.. ..

ولما سمع الغناء أبو كعب جعل يتلفت ثم رفع رأسه إلى أعلى بعد أن عرف المصدر وقال للفارسى :

ـ ليس تحت ظل النخـــل ســواى يا فارسـى . شـــكرا لـك .. ما رأيت عبدا يحب مولاه مثل حبك لمولاك ..

هتف الفارسى من أعلى وبصوت صعد نصـف منـه إلى السـماء وهبط منه إلى الأرض :

ـ ما قلت كلمة صدق يا أبا كعب سوى هذه ..

★ ★ ★

ملأ وعاء من الخوص الجديد بأطيب أنـواع تمـر المدينـة ، ولبـس ثيابـه المغسـولة . ونظـر إلى سيفه المعلق . وأمـد المصـــباح بزيـت جديد . وطيب كفيه بأن فرك بينهما بعض الأعشاب العطرة وأقفل باب حجرته والليل ساكن ثم خرج متســللا يريـد « قبـاء » حيـث نزل المختار .

لم تمتزج اليقظة الحادة بالخدر الغـامض فى شـعور إنسان بقـدر ما كانا يمتزجان فى شعور الفارسى وهو يحمل وعاء الخوص ويمشى تحت النجوم . كان ينظـر إليهـا فتغمـز كأنهـا تذكـره ببعـض قومـه

الذين عبدوها فأشاح بوجهه .. ولم تنبحه كلاب بنى قريظة حتى عبر .. ثم سار نحو قباء .

وعندما قارب المكان الذى نزل فيه النبى ، وقف فى العراء ووعاء التمر تحت إبطه ونظر إلى السماء وهتف :

« يا من خصصتنى دون أهل بلادى بأن أرى هذا النور ، اجعلنى أهلا لأن أنظر إليه .. وكحل به عينى وقلبى » .

ثم مضى ..

وقف قريبا من مجلسه بطوله الفارع وأجلاده القوية . وكان حول الرسول عدد من بنى عمرو بن عوف ، وإلى جانبه الصديق أبو بكر . ولم يكن الفارسى يعرف أين النبى فى الجالسين لكنه بعدما أدار عينيه فيهم وهم يتحدثون ، عرف الطلعة التى ترى بالقلب . كان يتكلم فى جلال ونبرات حديثة تخط للمسلمين وطنا جديدا ستشرق الشمس فيه .

ولم يتقدم حتى سكت النبى عن الحديث . وعندئذ خطا إليه . أحس أنه يدوس بقدم عارية على أبسطة كسرى ليلقى الرسول . والمرئيات حوله مثل ستائر تهتز وكل حسه متجه إلى محمد .

ومن جديد وقف مرة أخرى . وأخذته عينا النبى . أحس بقوة رفعته ثم التقطته .. شعر أنه فى محتواها .. فى حيزها بكل كيانه .

التلاشى مع الوجود فى وقت واحد . لكنه عاد يشعر بوجوده أكثر من تلاشيه عندما ابتسم النبى سائلا فى رفق :

ـ من الرجل ؟ تقدم ..

وتلفت الحاضرون وعرفه بعضهم ، وتقدم ذلك الذى كتب اللّه عليه أن يسيح فى الأرض حتى يلقى نبيه وجلس بين يديه واضعا وعاء التمر إلى جانبه (جانب الفارسى) وقال للرسول :

ـ أنا .. سلمان الفارسى .. اسمى سلمان الفارسى ..

فأطرق الرسول مليا ثم رفع رأسه ونظر إليه ثم هز رأسه وابتسم . وكل ملامحه تدل على تقبل عظيم . واستطرد سلمان :

ـ « إنكم أهل حاجة وغربة . وعندى طعام نذرته للصدقة . فلما ذكر لى مكانكم رأيتكم أحق الناس به فجئتكم به » .

وأشار إلى الوعاء . فقال الرسول لأصحابه : « كلوا باسم اللّه » وأمسك هو فلم يبسط إليه يدا .

وعندئذ هتف سلمان فى نفسه : « رحم اللّه شيخ عمورية .. لقد زودنى بعلامات أعرف بها النبى الذى كان ينتظره .. اللهم إنى مؤمن به .. لكن هذه واحدة .. فإنه لا يأكل الصدقة .. » .

وبعدئذ تزاحمت الوفود على الرسول وتأخر الفارسى ليخلى السبيل لغيره . . وعاد إلى مسكنه في الليل من جديد . تمدد على فراش الخوص فأحس أنه خشن . لماذا ؟ .. وفكر فأدرك أنه منذ قليل أحس وكأنما وطئت قدماه الحافيتان على بساط كسرى . فتبسم . وظل يعانى أرق المشتاق حتى قرب النهار فخرج إلى عمله . ثم عرج على السوق واشترى من أطيب طعام المدينة وسار مرة أخرى إلى الرسول .

رأى رجلا على هيئة المسافر ، هلل القوم وكبروا حين دخل عليهم ، ونهض الرسول وعانقه وفى عينيه حب وشكر . وسأل سلمان عن القادم فعرف أنه عليّ كرم اللّه وجهه وكان قد تخلف فى مكة حتى أدى عن الرسول الودائع ولحق به فى قباء .

عندئذ تقدم سلمان وسلم ثم جلس بين يدى الرسول الذى نظر إليه واستطالت نظرته وقال له :

- « إيه يا سلمان .. » .

فأطرق الرجل وهو يقول :

- إنى رأيتك لا تأكل الصدقة .. وقد كان عندى شيء أحب أن أكرمك به هدية » .

ووضع الطعام بين يديه . فقال الرسول لأصحابه :

- « كلوا باسم اللّه » ..

وأكل معهم ..

عندئذ هتف سلمان فى نفسه : « رحم اللّه شيخ عمورية .. لقد زودنى بعلامات ثلاث أعرف بها النبى الذى كان ينتظره ، وهذه واللّه العلامة الثانية .. إنه يأكل من الهدية » .

★ ★ ★

قال سلمان وهو فى الطريق إلى بعض شأنه حين لقى رجلا عرفه :

ــ هل أنت أبو أيوب خالد بن زيد ؟.. لعلى غير مخطئ إذ قلت ذلك ..

ــ ولعلى غير مخطئ أنا الآخر إن قلت : أنت سلمان الفارسى . وقد عرفتك بقامتك منذ جلست بين يدى رسول اللّه .

فأقبل سلمان على الرجل يلثمه ويقبل يديه ويهمس : « هاتان اليدان اللتان حملتا رحل رسول اللّه عن ظهر ناقته حين أناخت أمام دارك فدخلت بالرحل بعد أن نزل الرسول فى بيتك .. » فقاطعه الرجل قائلا :

ــ هل أنت مسلم يا سلمان ؟

فردد آيات من القرآن ..

فدهش وسأله :

ــ ولماذا لا تجهر ؟.

فقال سلمان :

ــ قل لى أولا أين ألقى الرسول اليوم ؟.

ــ تعال معى .. أسرع ..

وهناك فى البقيع رأى الرسول يتبع جنازة ، فسار حتى أدركه .. « وكان حوله أصحابه وعليه شملتان . مؤتزرا بواحدة مرتديا الأخرى » .. فسلم عليه ثم عدل وتأخر لينظر أعلى ظهره .. وما هى إلا لحظات حتى ألقى النبى بردته عن كاهله ، فقد أحس بما يبحث عنه الفارسى فهتف سلمان فى نفسه : « رحم اللّه شيخ عمورية .. لقد زودنى بعلامات ثلاث أعرف بها خاتم المرسلين .. وهذه واللّه هى الثالثة . إذ قال لى : سترى بقلبك حين تنظر بين كتفيه خاتم النبوة .. شهدت أنك رسول اللّه حقا وصدقا » .

★ ★ ★

وعندما دخل الليل ذهب سلمان إلى الرسول . كان فى هذه المرة شاعرا بأنه سيلقى بكل أثقال نفسه بين يديه . وعندما لاح بعوده الطويل على مقربة من مجلسه تبسم له النبى ابتسامة أعرض من كل ما قد لقيه بها من قبل . كأن نورها يقول له : « آن لك أن تجهر بما فى قلبك » . وخاض الجمع إلى حيث يجلس عليه السلام ومال على يديه يلثمهما ناطقا بالشهادتين وعيناه تدمعان . وفى كل قطرة دمع بذوب أعوام طويلة من الشوق .. وربت

الرسول على كتفه ليجلسه . وعندئذ انضم إلى جنود اللّه فارس من أرض فارس . حمل عنه الرسول أثقال نفسه حين أمره أن يقص عليه قصة حياته .. ففعل حتى إذا ما قال إنه رقيق فى بنى قريظة .. أمر النبى أصحابه أن يساعدوه ليتحرر ، وعن طريقهم سيدفع الفدية ..

★ ★ ★

غير أن سعادة الروح لم تكتمل لسلمان مرة واحدة .. فقد امتد زمن رقه عند بنى قريظة عدة سنوات ..

دخل حسان ذات مساء وجلس على المنسج وأخذ يردد على مسامعه ما سبق أن تناهى إليه عن انتصارات المسلمين فى بدر . فأخذ سلمان فى البكاء . وعندئذ صعق الشاب فقال له سلمان وهو يجفف دمعه بكمه :

ـ إنك كنت وراء المسلمين لتزودهم بالنبال . وكان أبوك فى المقاتلين وأمك كانت تواسى الجرحى ، ومن ثلاث طرق يا بنى دخل إلى داركم رضوان اللّه ؛ أما أنا .. فانظر موقف من تدعوه « يا عمى » .. ففى هذه الحجرة فارس وسيف وإيمان . الرق يمنعهم من العمل ..

قال الشاب فى تعطف شديد :

- كل ذلك لميعاد . لا تحزن يا عمى .. فليس يسرنى أن أقول لك ما سمعته عن أبى من أن المشركين يجمعون فلولهم لينتقموا من المسلمين .. الطريق طويل يا عمى وفى العمر مجال بإذن اللّه .

وانقطعت أخبار حسان . فخرج سلمان يتحسس أخباره . فى فترة كان المسلمون فى المدينة يعيشون فى أحزان ويتجهون إلى اللّه أن يعيد إليهم أفراح « بدر » موقنين أن ما حدث لهم فى « أحد » ليس إلا امتحانا لإيمانهم .

وعلم سلمان أن الشاب قد جرح وأن دماء زكية سالت على الرمل ، ولأول مرة يحس بكمد لا يعرف له وصفا ، فى داخله اعتركت قوتان ، كان تحتهما أشبه بأسد حبيس ، يحس أن الزئير في الحبس شكوى ، وأنه لن يزأر إلا وهو طليق السراح .

وفى هذه الليلة أوى مبكرا إلى مرقده ، وكأنه دفن جملة أعزاء . ذلك الذى ولى ظهره لوطنه وأهله وألقى نظرة غير دامعة على حجرة أبيه وخرج آخذا بمدخل الطريق إلى اللّه .

نام يتقلب ويتلو القرآن . فإذا بالباب يدق عليه . وكان الطارق حسان ومعه رجل آخر لم يسبق لسلمان أن رآه . وكان معه المبلغ الأخير الذى سيؤدى لأبى كعب لكى يصبح حرا .. لا .. بل لكى يصبح الحر حرا . ولما سمع سلمان حديثهم . تقدم إلى الحائط ونزع السيف من على الجدار وتقلده . ولما سألوه عما يفعل لم يجب فقد

كان مدركا أن كل ما سيحدث إنما هو فى سبيل اللّه متشككا فى نيات أبى كعب القرظى .

سار ثلاثتهم إلى دار أبى كعب ، ودق سلمان الباب بقبضة يده القوية مدركا أنه يطالب بـ « معنى الحياة » لذلك شدد القبضة وردد الطرقة . وجاء صوت مستكين ممطوط صالح للشكوى من امرأة فى الداخل :

– من الطارق ؟ ..

رد صوت حازم :

– أنا سلمان . أريد أبا كعب حالا ..

صمت قليل قالت بعده المرأة :

– أو .. إنه نائم .. فى الصباح يا سلمان ..

– لا يا امرأة . فإن معى ما سيجعله يقفز للقائى ماشيا على يديه لا على رجليه إذا ما أخبرته به ..

جاءتهم ضحكة وانية .. :

– دراهم إذن ؟؟ هيه ؟؟

– **نعم دراهم ..**

ولم يلبث أبو كعب أن خرج إليهم فى رداء نوم قديم وأمامه امرأته تحمل مصباحا . فلما رأى السيف على عاتق سلمان ذعر لكنهم سارعوا وأبرزوا له المال .. فضحك :



يحس أن الزئير فى الحبس شكوى ،
وأنه لن يزأر إلا وهو طليق السراح

ـ اعذرونى ما رأيت سلمان يحمل سيفا قبل الليلة .. عهـدى بـه يحمل .. آه .. (يريد الفأس) .

فقاطعه سلمان :

ـ عرفتنـى منـذ أعـوام زارعـا .. وستعرفنى فـى غـد محاربـا .. وسترى أى الرجلين أبرع من الآخر ..

قال أبو كعب بعد أن أخذ المال منهم :

ـ ليس يعنينى الآن منك الزارع ولا المحـارب .. انصـرف فـأنت حر ..

فهم حسان بلطمه ولكن سلمان قال :

ـ الفأس له والسيف للّه .. ولكم معنا موعد يا بنى قريظة ..

★ ★ ★

« فدتك نفسى يا رسول اللّه .. ها أنـت ذا تراهـم فـى عددهـم الضخم فى شمال المدينـة .. قريـش وحلفاؤهـا . يريـدون أن يثـأروا لقتلى بدر وأحد . وبنـو قريظـة فـى المدينـة مـن حلفـائهم . فدتـك نفسى يا رسول اللّه . إن رأيا .. إن أقررته كان من سلاح اللّـه وإلا فهو خاطرة إنسان » .

هذا ما قالـه سـلمان للرسـول وهـو يتفقـد المواقـع حـول المدينـة ليصف جيش المسلمين فـى وجـه الشـرك . بعـد أن دخلـت النسـاء والأطفـال إلى القـلاع وأقفلـت الأبـواب . وكـانت المدينـة محاطـة

بالجبال إلا مدخلا واحدا . وكان المسلمون فى قلق . وأخذ المنافقون يبذرون بذور الفتنة .

أقبل سلمان على النبى يقول له :

« الفرس يحفرون الخنادق حول المدن لحمايتها من الهجوم » .

زاد وجه الرسول استضاءة وإشراقا ، ورأى المسلمون ذلك على النبى فأيقنوا أن اللّه أهدى إليهم النصر . وشمر رسول اللّه عن ساعديه الطاهرتين وأمسك بالفأس وبدأ حفر الخندق ، وتعالى التهليل والتكبير من كل جانب حتى وصل الصوت إلى النساء فى الحصون فحاولن أن يطللن ليعرفن الخبر . وأخذ سلمان فأسه وأخذ يحفر أرض المدينة ، وهو يذكر تلك الأيام التى كان يكسر فيها الأحجار لليهود . وأخذ يهمهم بآيات من القرآن . قطعها عليه أول الأمر صوت ندى غذى أعاد إليه ذكريات خالية . أبعد مدى من حوادث هذه الأيام . تلك الحوادث الفذة التى تهز قلبه كأنما لتوقظه من ماذا .. من اليقظة ؟ حتى سبح سلمان فى إحساس لا يكاد يكون أرضيا . إذ هو بين المسلمين ويأخذ النبى بمشورته . ما أعظم هذا الوسام الذى حظى به .. وسام من نجوم السماء .

لكن صوتا نديا فى الشوق يأتى من أحد الذين يحفرون . آه .. إنه .. هو ذلك الوثنى الذى كان يغنى على نهر دجلة يوم لقيه فى القافلة الخارجة من فارس .. سهيل العربى .. إنه هو ولا شك .

وأحس سلمان أن فيضا إلهيا عظيما يرفعه كما يرفع البحر السفينة . وترك فأسه لحظة وسار إليه . وكان قد وصل مهاجرا من قبل ذلك ببضع ليال .. وناداه سلمان فرفع إليه وجهه ..

وثب كل منهما إلى الآخر يعانقه ويبكى .. وقلب كل منهما يتذكر مقالة سلمان : « لن نلتقى إلا إذا كان إلهنا واحدا يا سهيل » .. وها هما اليوم قد التقيا على الإله الواحد .. ونبيهم يفرق فى العمل ويحفر معهم حول المدينة . وبعد ذلك قال سلمان لصاحبه :

ـ هلم نحفر معا .. تعال إلى جوارى فأنت فأل طيب فى حياتى يا سهيل ..

ثم أقبل الليل ، والسكون فى جبهة المشركين يخيم خائفا وجلا وإن كان العدد عظيما ـ عددهم الذى ربطته خيوط من المصالح مثل نسج العنكبوت .

أقبل الليل .. وفتح الخندق فمه .. حول المدينة . مثل وحش أسود يرقد .. إن داسه أحد أهلكه .. ونظر إليه المسلمون وأيقنوا أنه نصر من اللّه .. فلم يسع المهاجرون إلا أن صاحوا ذاكرين الفضل لصاحب المشورة . لسلمان :

ـ سلمان منا ..

ولكن الأنصار رأوا أنفسهم أحق بهذا ، فإذا كان المهاجرون قد اعتبروه فى الإسلام مهاجرا كان الأنصار سكان المدينة اعتبروه مقيما . فهم مثل « خزرجى » أو « أوسى » .. هو « أنصارى » فصاحوا ذاكرين الفضل :

ـ لا .. بل سلمان منا ..

وكان رسول الله يطوف بالمسلمين . ليرى ما تفعله القلوب المؤمنة بالأرض الصلدة فسمع تهاتفهم فأقبل حتى وقف فى مكان وسط بينهم وقال بصوت هادئ :

« سلمان منا آل البيت » .

ولما سمع سلمان مقالة النبى أحس بعراقة نسبه . وحضرته صورة الدهقان أبيه وهى تدخل فى ظلام لا نهاية له ، ولكنه شعر بنفس الشعور الذى داخله وهو يخطو الخطوات الأولى إلى الرسول وهو فى مجلسه بين أصحابه فى قباء بعد الهجرة بيومين اثنين . شعر سلمان أن يديه اللتين ألهبت الفأس بشرتهما تمسك بأستار حريرية فى قصر كسرى ، هذه المرة شعرت يداه ، وفى المرة السابقة شعرت قدماه القاصدتان إلى النبى فى مجلسه ـ بأنها تدوس على بساط كسرى .

وبعد قليل ارتفع فى سماء المدينة حول الخندق لغط المسلمين وهم يعملون . وجاء حسان بن ثابت الأنصارى فقال عدة أبيات من

الشعر ألهب حماسة القلوب وعاد إلى حيث يقف فى حراسة القلاع التى بها نساء المسلمين وأطفالهم .

واستتب الظلام وهم يعملون . وفى هذ المرة وقف سلمان متعبا يتصبب العرق منه . كان هو وسهيل يضربان فى صخرة لا تريد أن تنكسر . وكان لابد من كسرها . واجتمع ساعدان فارسى وعربى تحت الراية لكسر الصخرة لكنها أبت عليهم . كانت فى عناد قلب المشرك .. نظر إليها سلمان تحت جنح الظلام وتبسم .. كان يرى أنها ستنكسر حتما .. وضع فأسه عليها ومشى يبحث عن الرسول . وعندما مثل بين يديه أخبره بأمر الصخرة وهل يمكن توفيرا للوقت والجهد أن يدور الحفر حولها ويتركوها فى مكانها ؟.

وسار الرسول فى صمت . ثم وقف أمام الصخرة ونظر إليها . كانت على هيئة حية قصيرة مقوسة . غامضة لا يعرف أين رأسها وأين ذنبها . وقف النبى أمامها برهة ودعا اللّه ، ثم طلب معولا . فأتاه سلمان به . وأمر النبى أصحابه أن يتعدوا عن مرمى الشظايا . وسمى اللّه وضرب الصخرة ضربة فجَّرت منها شرارا أضاء الليل حتى رأى المسلمون وبينهم سلمان نواحى المدينة كلها . وراع المسلمين أن سمعوا رسول اللّه يقول :

ـ اللّه أكبر .. أعطيت مفاتيح فارس . ولقد أضاء لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى . وأن أمتى ظاهرة عليها » .

وانكسرت الصخرة من الضربة الثالثة ..

وأطرق سلمان فى خشوع وهو يقول فى نفسه : « صدق اللّه ورسوله » . ورأى فى ظل الإطراقة جيشا لجبا يمشى فى المستقبل من حيث يقف هو والمسلمون الآن ـ متجها نحو الشمال الشرقى . إلى حيث يعود سلمان الفارسى إلى الأرض التى فيها مهده .. مهد من الحرير والديباج أنكره قلبه الذى ظل يضرب فى الأرض باحثا عن الحقيقة .

★ ★ ★

٧

ها هو ذا السابع عشر للهجرة والدنيا تغيرت ..

قبض النبى إلى الرفيق الأعلى والخلافة اليوم على يد عمر ..

والمسلمون معسكرون الآن على الشاطئ الغربى لنهر دجلة والنهر فى فيضانه يجرى نحو الخليج بسرعة تدوخ ..

كان سلمان الفارسى ورفيق سفره القديم وأخوه فى الدين الجديد سهيل العربى بين الجنود .. ينظران إلى النهر ويذكران يوم ركباه نحو الشمال . يوم كادت السفينة توشك على الغرق وركابها يبتهلون إلى الله ..

نظر كل صديق إلى صديقه نظرة حملت مجمل القصة ثم انصرف كل إلى أفكار أخرى ..

أطرق سلمان لأنه تذكر حادثا لا ينساه . ذلك الذى وقع يوم الخندق ، يوم انبعثت الشرارة من الصخرة بيد النبى فبشر المسلمين بأرض فارس .

خيل إلى سلمان أن ضوءها لا يزال .. ثابتا على الأفق الشرقى مثل طلائع الشمس . وتحت وهجها السماوى تأخذ عيون المسلمين

إيوان كسرى الأبيض فى « مدائن الإيوان » على الشاطئ الآخر للنهر ..

وقهقه سهيل العربى فجأة والمعسكر فى سكون فنظر إليه سلمان الفارسى وابتسم فى صمت . لكنه سأله بعينيه عما أضحكه ، فقال سهيل :

ـ واحدة بواحدة .. خيلنا خافت فى اللقاء الأول من منظر الفيلة فلما برقعنا إبلنا وجللناها ذعرت منها الفيلة .. وعلى كل فقد قطعنا أحزمة سروج الفيلة فأسقطنا ركابها وضربناها بالنبال فى آذانها .. خيل الله أقوى يا سلمان ..

وعاد يضحك ، لكن سلمان لم يأبه له .. فعرته نوبة شديدة من القلق وسأله سهيل :

ـ ما بك يا صديقى ؟

ـ لا أستطيع أن أصف يا سهيل .. ماذا تظن أننى قائل ؟ لقد أخجلنى الله إذ لم يترك لى رجاء إلا حققه . أريد أن أشعر دائما أننى محتاج إليه . فباحتياجنا إليه سندخل قصور المترفين . وماذا أقول لك يا سهيل .. إن أبا ذر الغفارى خوفنا من هذه المباهج . لكن درة عمر تكسر باب كل باطل . إنى أسأل نفسى يا سهيل الآن وأنا أنظر إلى دجلة المتدفق الذى سنعبره حتما إلى قصر كسرى : « هل أنا عائد إلى وطنى أو هل أنا قد تركت خلف

ظهرى وطنى فى المدينة ؟ » إننى أشعر أن وطنى خلفى . لقد وطئت قدماى حافيتين إلى الرسول فى مجلسه فأحسست أنهما تطآن ـ مقدما ـ بساط كسرى . ترانى يا سهيل هل سأرى أحدا من أهلى .. أهلى بحكم أنهم نسلونى .. أخذت منهم اللون وليس اللون هو البناء كله .. إن محمدا هو الذى بنانى .. ماذا أقول يا سهيل .. لا شىء . وبحسبى ما قلت .. دعنى أذهب لسعد بن أبى وقاص لأسأله ما ينتظر . فقد جاء إلى منذ قليل من أخبرنى أن الفرس يجلون بكل ما يملكون عن مدينة الإيوان .

وترك سلمان صديقه واتجه حيث ينزل سعد . وجعل سهيل يتذكر ما كان يفعله سلمان حين دخلوا المدائن الدنيا . كان يقف بحصانه فى كل مفترق طرق شاهرا سيفه ويخطب بالفارسية فيلتف حوله الناس ليسمعوا سحر بيانه :

ـ « ليس غاية المسلمين ما فى أيديكم بل غاية المسلمين ما فى قلوبكم .. إننا نريد أن تخرجوا من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة » .. « كنت ابن دهقان كسرى كفرت بالشرك وتركت أرضكم وخرجت أبحث عن الله فهدانى محمد إليه .. وهأنذا قد عدت لا لأبحث عن أرض أبى وحظائره ورقيقه ، فقد ذقت ذل الرق . ولكننى عدت مع المسلمين .. ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » .

هذا ما كان يذكره سهيل العربى من بعض ما قاله سلمان الفارسى حين خاطب الفرس بلغتهم ... فى الوقت الذى كان سلمان فيه عند سعد .

وعاد سلمان بعد فترة وعلى وجهه علامات التأهب .. حاجباه المقرونان بينهما تقطيبة فارس عريق .. وشفتاه مضموّمتان وصدره مفتوح ... ولم يكد سلمان يلقى بالخبر إلى صاحبه حتى كانت همهمات وتهليل وتكبير .. تسرى فى صفوف المسلمين .. وتقدم سعد بجواده الأبيض . كان فى لون إيوان كسرى .. وكان ذنبه يهتز فى خيلاء .. وإن كان سعد يتململ على سرجه لأن جسمه كان مملوءا بالخراريج بقية ما كان فى القادسية ..

وزمجر نهر دجلة وتكاسحت أمواجه لكن سعدا أمر كل مجموعة من الفرسان أن تتضام وأن تجعل الرماح بينها مثل الأربطة حتى تقوى المجموعة على مقاومة الموج .

سبحت الخيل مجموعات مجموعات فى مئات من الفرسان وكان سهيل فى مجموعة سلمان . وبين وقت وآخر كان سعد يهتف فى مقدمتهم سائلا :

ــ أهناك غريق ؟؟

فتأتيه أصوات فرحة :

ــ لا يابن أبى وقاص .. إلا واحدا وانتشلناه ..

فصاح سعد :

ـ من هو ؟؟

فأجابوه :

ـ سهم سقط فى النهر من جعبة أحد الفرسان فلم ندعه يغرق ..

فيرد ابن أبى وقاص :

ـ يا أتباع محمد .. أنتم على حق . فإن سهما للّه لا يغرق .

وفى خلال العبور ، ارتفعت أصوات بآيات من القرآن ..

ونادى أحدهم بأعلى صوت عندما بدأ الشاطئ الشرقى فى الدنو من المسلمين :

ـ « رباه .. أين أنت يابن الخطاب لترى بعينيك » .

وتتابعت الخيول ووقفت تنفض الماء من على جلودها على الأرض كما تفعل الطيور المبتلة . ونظر سلمان إلى ما حوله .. تذكر ذلك المكان جيدا ، تذكر المدخل المشجر والحديقة ذات الأزهار التى تطل عليها نوافذ الإيوان . ففى هذا المكان منذ الصبا الأول جاء مع أبيه الدهقان حاملا هدية الفلاحين الجبرية إلى كسرى فى أحد أعياده .. وها هو ذا يتقدم مع المسلمين نحو المكان نفسه . غير أن الراية اختلفت ..



وتقدم سعد بجواده الأبيض . كان فى لون إيوان كسرى

كانوا مقدرين أن تسبق إليهم فرسان المقاومة لكن سبق إليهم الصمت المخيم على المكان . وفر يزدجرد وأتباعه حاملا أولاده وما استطاع حمله من ماله ..

ودق قلب سلمان . ها هم أولاء جنود المسلمين يدخلون الإيوان ، القباب تردد صدى هتافهم ، والتماثيل النادرة كأنها تنظر بعيون مذهولة ، وجوه سمراء .. وجنود شعث غبر ، زينهم عقيدتهم وطيبهم دعاؤهم ..

ولم يلبث المسلمون أن بهرت أبصارهم ، لكن سعدا تقدم بهم إلى أحد الأبهاء ليصلى لله شكرا ويقرأ : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون .. ﴾ .

ثم أقبل سلمان على ابن أبى وقاص وعانقه يقبله كأنما هى تحية للعرب فى أرضهم الجديدة ..

★ ★ ★

قال سهيل العربى لصديقه سلمان :

ـ ماذا تريد يا سلمان بعد أن أصبحت واليا على المدائن . وبعد أن ولاك عليها عمر بن الخطاب وهو من هو حزما وقوة ونفاذ بصيرة .. هذا فى رأيى وسام جديد بعد الوسام السماوى الذى قلدك إياه رسول الله عليه السلام حين قال يوم الخندق : « سلمان منا آل البيت » .. هلم قل لى ماذا تريد بعد ذلك ؟ .

فأطرق سلمان . وكان جالسا تحت ظل شجرة أمام أصغر بيت في المدائن وهو يجدل خوصا ليأكل من كد يده ، فهو يوزع راتبه على المحتاجين . أطرق ثم رفع رأسه وقال لسهيل :

ـ هلم معي إلى الضيعة القديمة .. ضيعة والدي في قرية « جي » .. إلى حيث ولدت هناك يا سهيل .. تعال لترى موطن المجوس .. لترى أين داست قدماي وأنا طفل .. وفي الطريق سنتحدث ..

وركبا إلى هناك . كل على حصان . ولم يكن معهما أحد . فما كان والي المدائن الجديد امتدادا لنظام كسرى بل هو دين جديد ، يخرج من الظلمات إلى النور ..

وكان سلمان يقول لصديقه والجوادان متحاذيان كأنهما مشدودان في مركبة :

ـ هل تدري ماذا قال لي ابن أبي وقاص ؟.. إن الغنيمة الكبرى التي غنمها في هذه الفتوح ثوب واحد . هل تعرف ما حقيقته يا سهيل ؟.. إنه ذلك الثوب الذي جرح وهو لابسه في غزوة بدر . فيه بقعة من دمه وخرق من نبلة مشرك سيقدمها بين يدي أعماله يوم لقاء الله . وقد أوصى أن يكفن فيه .

هز سهيل رأسه وقطب حاجبيه كأنما يسأل نفسه ماذا فعل .. لكن سلمان استطرد :

ـ أما أنا فقد حصلت يوم موقعة جلولاء على غنيمة نادرة .. صرة بأكملها .. صرة مملوة بالمسك .. سأذيبه بيدى فى الماء ليكون حنطى يوم ألقى اللّه .. فما أعظم هذه الغنائم ..!

وسكت الصديقان . كان وقع حوافر ثمانية للجوادين يدق على الطريق الصلب كدف يوقع لحنا مقدسا . ثم استتب الصمت لحظات قال بعدها سلمان :

ـ سهيل .. هل تعرف مم أخاف اليوم ؟.

فأجاب صاحبه :

ـ لا .. قل لى ماذا يخاف قلبك المؤمن ؟ .

فقال :

ـ أخاف أن يمتد بى الأجل حتى أرى المسلمين وقد فتنهم متاع الدنيا وزخرفها . فى هذه الزخارف التى حولك يا سهيل لم يستطع أحد أن يرى اللّه . لكنها اليوم تحت ظل الإسلام الفتى القوى تتحدث عن اللّه لأن فيها حقا لكل مسلم . ولكن يا سهيل .. إنها يوم يستأثر بها القوى دون الضعيف والحاكم دون المحكوم فإنها ستكف عن التحدث عن اللّه . ستعود زخرفا أخرس ذا لغة شيطانية وسيقول الناس مقالة الرسول : « رحم اللّه أبا ذر » .

آه يا سهيل .. ما أجمل احتياجنا إلى اللّه .. وكل شيء يلهى ـ حين ننسى احتياجنا إلى اللّه ـ فهو قبيح لا يساوى شيئا . فأهلا

بالمكاره ما دامت هى الطريق إليه . ليتنا نرى الراعى يا سهيل .. ربما لا يزال على قيد الحياة ..

ــ من ذلك الراعى ؟

ــ من رعاة أبى الدهقان . رأيته يجلده يوما فأحسست وقع السوط على جلدى .. أخذت ثيابه بعد ذلك وهربت ودعوته بسيدى فكاد يجن .. سيكون مسلما إن كان حيا فهو بحاجة إلى دين (السواسية) .. وربما وجدت عنده ثيابى القديمة كتذكار تاريخى .

وتنهد سلمان .. وسبح فى ذكريات لم يجرؤ على البوح بها فقد كانت صورة (بوران) أخته تطوف بخياله ..

★ ★ ★

« والآن هذه هى قريتى التى هربت منها » .

هتف سلمان بهذه العبارة وكأنه فى حلم . وسار على قدميه وحده فى هذه المرة تاركا سهيلا فى مكان أمين سيلقاه فيه . ذهب يجرى نحو المزرعة فإذا برجل قصير مسن جالس عند باب الحظيرة ولم يكن فيها خنازير بل كان فيها أغنام . وعرفه سلمان من صوته حين سلم عليه .. ثم ذكره بنفسه . وقال له :

ــ لقد جئت مع جنود المسلمين وأنا واحد منهم .

فاحتضنه الراعى باكيا وقاده نحو الحجرة القديمة التى لقيه فيها آخر مرة .. وجلس معه . يمسح على كتفيه وجنبيه بين لحظة وأخرى كأنه لا يصدق لولا الأمارات التى حكاها سلمان له فى ليلة الفراق . ثم حكى له الراعى ما عمله أبوه فى ملبس له (لسامان) بعد سفره ليعلن للناس مقتله خشية العار . وأخبره أن والده قد مات . وبوران تزوجت وأنجبت وماتت .. فكفكف سلمان دمعه .. :

« كنت أحبها .. وأحب لها أن تدرك الإسلام .. » .

أما أمه فقد ماتت أيضا . والدار ملك إخوته .. ولا يزالون على المجوسية . واستطرد الراعى :

ـ أما أنا فمسلم .. النور يدخل القلوب المخلصة كما تدخل أشعة الشمس والقمر من النوافذ المفتوحة .. قبلنى يا بنى وستفوح منى اليوم رائحة غير رائحة الخنازير .

واحتضنه وهو يبكى ..

وسار سلمان معه إلى دارهم القديمة ، ولما لقيه إخوته أنكروه ، لكنه شفقة عليهم من أن يجحدوا ترك لهم الراعى ليعلمهم ثم يعود إليهم إن كانوا مسلمين .

وخرج .. توجه إلى التل هناك .. حيث يقع بيت النار القديم .. ووقف والتف حوله قوم مسلمون .. ووقف أحدهم فأذن ...

طارت من على حائط معبد النار طيور كانت ساكنة فيه ، اتجهت إلى السماء و لم تعد إليه أبدا .. عششت على قمة شجرة خضراء .. وفى هذه اللحظة عاد الراعى إلى سلمان فأخبره أن دارهم فى القرية أصبحت دار إسلام . فتقدم إليها مطمئن القلب ..

وفى صبيحة اليوم التالى كان سلمان متجها إلى المدائن إلى حيث يجلس من جديد لينسج الخوص .. وليأكل من عمل يده .. وأخباره فى المدينة تجعل ابن الخطاب يهز رأسه عجبا من سلوك هذا الباحث عن الحقيقة ..

القاهرة فى نوفمبر ١٩٦٦

مؤلفات الأستاذ محمد عبد الحليم عبد اللّه

(١) لقيطة
(٢) بعد الغروب
(٣) شجرة اللبلاب
(٤) شمس الخريف
(٥) غصن الزيتون
(٦) الماضى لا يعود
(٧) من أجل ولدى
(٨) ألوان من السعادة
(٩) الوشاح الأبيض
(١٠) سكون العاصفة
(١١) الضفيرة السوداء
(١٢) الجنة العذراء
(١٣) أشياء للذكرى
(١٤) خيوط النور
(١٥) حافة الجريمة
(١٦) الباحث عن الحقيقة
(١٧) البيت الصامت
(١٨) أسطورة من كتاب الحب
(١٩) للزمن بقية
(٢٠) النافذة الغربية
(٢١) جولييت فوق سطح القمر
(٢٢) قصة لم تتم
(٢٣) الدموع الخرساء
(٢٤) لقاء بين جيلين
(٢٥) الوجه الآخر
(٢٦) غرام حائر
(٢٧) بجلم آخر الليل
(٢٨) عودة الغريب

رقم الإيداع ٣٦٨٦
الترقيم الدولى : ١ ـ ٢٦٢ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه